بخطوات سريعة كان يمشي ويجرّها خلفه، ونظرة الغضب واللؤم تغمره كسحابة داكنة. لم يُلقِ بالاً للموظفين الذين كانوا يتطلعون إليه بذهول، يتساءلون كيف لمديرهم أن يجرّ فتاة في العشرينات خلفه، بينما تردد صرخاتها واحتجاجاتها في أرجاء الشركة.

صرخت قائلة: "دعني!" ولكن دون جدوى. دفعها بعنف إلى داخل مكتبه، تبعته سكرتيرته مستفسرةً عمّا يحدث، لكنه صرخ في وجهها بغضب: "لا أريد أي شخص أمامي! اذهبي ولا تدخلي أحداً!"

أغلق الباب بقوة مما جعل عينيها تلمعان بالذهول والحدة. عادت السكرتيرة وجلست خلف مكتبها، والغضب والقهر يتآكلانها.

داخل المكتب، وقف أمامها، عيناه تشتعلان بالنار، وهمس بحدة: "تمردتِ وتكبرتِ يا شهد. لم تعودي تلك الطفلة التي تخافني وتنفذ أوامري. أصبحتِ كبيرة وتظنين أنك قادرة على أن تعيشي كما يحلو لك، أليس كذلك؟"

أجابته بصراخ يملؤه الغضب: "وماذا يعنيك أنت؟ من أنت لتفرض عليّ أوامرك؟"

صرخ بصوت جهوري: "ألا تفهمين؟ ما تظنين نفسك؟ تعتقدين أنه لا يوجد من يوقفك؟ إلى متى ستظلين هكذا؟ سأقتلع روحك إن لم تطيعي، أتسمعين؟"

أشعلت كلماته غضبها، فدفعته بعيداً عنها وقالت بتحدٍّ: "لن أمتثل لأوامرك اللعينة! لدي من يحاسبني، أبي وأمي وأخي، وليس لك حق في ذلك. ابتعد عن طريقي!"

ضرب رأسه بيديه، يكز على أسنانه بغضب: "كفى! اصمتي! ألم تدركي من أنا وماذا أريد منك؟ ألم أقل لك مراراً أنني أحبك وأريدك؟"

ردت عليه بحدة: "ولماذا أكون مع رجل مثلك يكبرني بخمسة عشر عامًا؟ لست مجنونة لأرتبط بك."

ابتسم بحدة وصمت للحظة قبل أن يقول: "ألا يعجبك أنني أكبر منك وأريدك لي؟ ألا أشرّفك؟"

نظرت إليه باستخفاف وقالت: "لا تشرفني ولا تعجبني. ابتعد ولا تظهر أمامي مجدداً."

قهقه بخبث واقترب منها بخطوات بطيئة، ثم أمسك بمعصمها وضغط عليه بقوة مما جعلها تتأوه بصوت خافت، وقال بحدة: "انسِ تماماً أنني أحبك! لكن ماذا عن تصرفاتك؟ عن وقوفك مع الشبان وضحكاتك؟ عن ملابسك؟ أهذه ملابس فتاة محترمة؟"

رفع فستانها القصير بينما كانت تحاول الابتعاد، وابتسم قائلاً: "ترين؟ لا يعجبك ما أفعله، كما لا تعجبك نظراتهم. هكذا ينظر إليك الشبان، ويريدون فعل ما أفعل."

انفجرت به: "وما شأنك؟ أنا أعلم جيداً ما أفعل وماذا أرتدي. إن كنت حرة، فذلك لا يخصك أبداً!"

صرخ بجنون: "اصمتي! لا تتحدثي عن نفسك هكذا!"

نظرت إليه باحتقار وقالت: "ألست أنت من يتحدث عني هكذا؟"

تحولت نظراته إلى البرود وأجاب: "أنا فقط أقولها لك، أنتِ لا تقوليها."

انتزعت يدها منه، وتوجهت نحو الباب قائلة: "افتح لي الباب! أريد الذهاب إلى منزلي."

رد وهو يجلس خلف مكتبه: "تريدين الذهاب إلى منزلك أم إلى الشبان الذين كنتِ تضحكين معهم في الشارع؟"

صرخت به: "لا دخل لك بي! افتح الباب ودعني أذهب!"

ببرود ارتشف من كأسه وقال: "اجلسي ولا أريد سماع صوتك. عندما أقرر سأعيدك."

نفخت خديها بغضب وتوجهت نحو الأريكة، وجلست معطية إياه ظهرها، بينما ابتسم ساخراً وقال: "ستغيرين طريقة لباسك وسترتدين ملابس محتشمة. لا داعي لأن تسيري وتجذبين الشبان خلفك."

استدارت وقالت بغضب: "لا أفهم! ما الذي تريده الآن؟"

دحرج عينيه بملل ولم يجب، فعادت لتتجاهله، وداخلها غضب لا يُحتمل.

جثم الليل في مجثمه، ونشر أجنحته السوداء على الكون بأجمعه. فهجع تحت ظلالها الأحياء جميعاً من بشر وحيوان، ولم يبقى ساهراً وسط هذا السكون المخيم إلا عينا شهد. كانت جالسة على مقعد خشبي في حديقة منزلها، تُحاول أن تُهدّئ من ثورة قلبها الذي كان يُحاول أن يُفلت من صدرها. كانت تفكر في ذلك الرجل الذي بات يُزعجها وجوده، وحديثه وحبه لها. لم تكن تتخيل أبداً أن يحبها شخص كزياد! وأن تصل تصرفاته معها إلى ما هي عليه الآن.

كلما رأته قلبها ينتفض فزعاً وتشعر بسخونةٍ داخليةٍ في جسدها. أصبحت تمقت وجوده قربها، أو في منزل والديها حتى، فهو صديق العائلة. توجد علاقة وثيقة بينهم وبينه، وهذا ما يجعلها قلقة ومرتابة منه.

والدها يحب زياد كثيراً، ويعتبره أهلاً للثقة. تخاف من أن يتجرأ ويتقدم لخطبتها ووالدها يوافق، أو بالأصح! جدها. نعم فجدها يحكمها أكثر من والديها، وله كلمة عليها وعلى والدها، ولا يجرؤ أحداً على الوقوف في وجهه، أو يخالف له رأي أو قرار.

مكثت بعض الوقت مكتوفة اليدين، محنية الرأس، غارقة في تفكيرها فيه، فكيف له أن يفكر بها أو يتجرأ على حبها! هناك فرق كبير بينهما.

لم تستطع أن تخرج من عقلها كلماته لها، نظراته، نبرته، طريقة حديثه، حتى تلويحة يديه. هي لا تفكر بهذا كله لأنها تحبه بل لأنها حقاً متعجبة منه ومن طريقة تمسكه بها.

أطلقت تنهيدة حارة لتسمع رنين هاتفها فأجابت فوراً:

"أهلاً ريمة".

كانت بائسة، حزينة، والأفكار تتثاقل في عقلها، ولكن ما إن سمعت صوت صديقتها وفكرتها الجنونية، حتى لمعت عيناها بالحماس لتجيب بنبرة حماسية: "أووه يا إلهي! فكرة رائعة، سنخوض مغامرة عظيمة يا فتاة".

وصلها الرد بصوت حماسي من صديقتها لتغلق الهاتف بعد أن اتفقتا على تنفيذ الفكرة، والتي كانت حقاً خطيرة وجنونية.

••

لم يختلف حال بطلنا عن حال محبوبته كثيراً، فهو لم يكن يفكر بشيء غيرها. منذ أن رحلت وهو جالس في مكتبه يفكر في كيفية إقناعها به وبحبه. كان مفتقدا لها كثيراً، يكاد يموت شوقاً لرؤيتها. رغم أنها كانت أمامه

منذ عدة ساعات إلا أنه يشتاقها كل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية. ولكن، ومع كل لحظة اشتياق يعيشها، إلا أن قلبه متعب منها بشكلٍ لا يُصدق.

أخذ يمر بكل مكان كانت تمر فيه أو تجلس من فوقه، خافضاً رأسه لا صوت يخرج منه، ولا دموع تسيل من عينيه، بل لا يكاد يُخرج أنفاسه، بقي وحيداً منهوك القوى، ثم استند إلى أحد الجدران خوفاً من أن يسقط إلى الأرض.

ثم هز رأسه وجمد كالأبله، وفجأة سحق مشعله غاضباً بقدمه، وقذف الجدار برأسه دون أن يقول شيئاً أو يرسل تنهيدة فسقط مغمى عليه.

وحينما رجع إلى وعيه ألقى بنفسه على الأريكة التي كانت تجلس عليها، وتقلب فوقها، وقبل موضع شهد في ثورة عصبية ظاهرة، واحتفظ بوضعه هذا كأنه يحتضر، ثم نهض يتفصد عرقاً، لاهثاً، ضائع الوعي، وانطلق يدق رأسه بالجدران، وفي عزمه أن يحطمه، ثم سقط مرة أخرى منهوك القوى.

يبدو لي أن قرائي الأعزاء لم يتعرفوا بعد على شخصية زياد، شخصية غامضة، عصبية، ذات عقلية مائلة للجنون، في كل ما يتعلق بشهد فقط، كيف! متى! لماذا أحبها! لا يعلم.

كل ما يعلمه أن هذه الفتاة ليست إلا فاتنة، بريئة، صغيرة، تكاد تختفي بين ضلوعه لو ضمها.

كان صوتها ووجهها وحركاتها، بل كل مافي شخصيتها نداء يمزق الأكباد بالنسبة له، صادراً عن غريق يرسل إشارة حزنه نحو سفينة مرحة تمر بعيداً في الأفق عبر حزمة من أشعة الشمس.

فعلت مافعلته بقلبه، وها هو الآن يكتوى بنار العشق اللاذعة والمحرقة.

إن هذا الرجل لم يكن قد وجد من الوقت فسحة يشعر فيها بموضع قلبه. لقد جعلت منه هذه الصغيرة رجلاً جديداً، فأدرك أن في هذا العالم شيئاً غير العمل، والشركات، والصفقات الرابحة، وأن الرجل في حاجة إلى العاطفة.

وأن الحياة التي تخلو من العاطفة ليست غير حركة جافة صارخة ممزقة، ولكنه تصور أن عاطفة الدم والعائلة والعمل هي وحدها الضرورية فقط. لقد رأى هذا كله وهو في مرحلة من عمره تُدفع فيها الأوهام بالأوهام.

وبينما كان في خضم مشاعره وأفكاره أتاه اتصالاً جعله ينتفض بغضب هادر، ليحس أن دخاناً هائلاً يمر أو يصب في دماغه، ليبدو له أن رأسه قد أصبح مدخنة من مداخن الجحيم. وخرج من المكتب متوجهاً إلى مكانها وفي عينيه كل الغضب واللؤم متوعداً لها بأشد العقاب.

.....

كانت شهد تعيش هذا النوع من الأجواء لأول مرة. تنظر إلى كل ما حولها بغرابة ممتزجة بالحماس. لأول مرة تشعر أنها حرة طليقة، غير مقيدة سواء من جهة والدها وجدها، أو من جهة ذلك الرجل. صفقت بحماس حين رأت مجموعة من الشبان والفتيات يرقصون ويمرحون ويقفزون غير آبهين بشيء. كانت حقاً مستمتعة، فهذه أول مرة تعيش هذه الأجواء وتدخل إلى مكان يكاد يشبه المطعم، ولكنه من نوع مختلف، فنستطيع أن نقول أنه أشبه بملهى ليلي.

لم تكد تنطفئ عيناها من الحماس إلا وشعرت به من جديد، حين رأت أمامها شاباً واقفاً أمامها بابتسامةٍ صغيرةٍ ويدعوها إلى الرقص. لم تعارض، بل وافقت على الفور ونهضت برفقته لتشاركه الرقص بكل حماسٍ وسعادةٍ وابتسامةٍ واسعةٍ لم تفارقها مذ أن دخلت إلى المكان برفقة صديقتها التي دعتها لِخوض هذه المغامرة الخطيرة دون علم والديها حتى.

كان يتابعها بعينان مشتعلةٍ وحادةٍ وهي تراقص أحد الشبان، قتلته تلك الابتسامة الواسعة التي ترسلها للشاب، كان هذا المشهد مصدر عذابٍ جديدٍ له، وهزاتٍ متكررةٍ، وكان قد تعب من هذا كله.

فماذا يفعل وهو حبيس هذه المشاعر، وماهي الأفكار التي كان يتلوى تحتها، هل يخوض معركة أخيرة مع هواه المخيف!.. أم يتركها ويذهب وكأن شيئاً لم يكن!

يسحق قلبه بقدمه وينسى حبها! أم يتقدم نحو ذلك الشاب ليسحق عظامه وهو يعلم أنه لا شأن له، ومن ثم يسحق عظامها هي!

حسناً! فاز غضبه وغيرته العمياء جعلته يتقدم نحوها بعينان لاهبةٍ تكاد تخرج منها النيران، مكوراً قبضته، وفكه مشتد، ليمسك ذلك الشاب من ياقة قميصه ويسدد له لكمةً جعلته يترنح أرضاً.

فئة صغيرة من الشبان والفتيات كانوا قد رأو هذا المشهد ليقفون مصعوقين مما حدث، وشهد واقفة مثلهم مصعوقة أيضاً، ولكن قلبها يرتجف لرؤيته بهذه الهيئة وهذه النظرة المميتة التي يوجهها إليه.

أمسكها من يدها وسحبها لترتطم بصدره ومن ثم ألقى نظرة على الشاب الذي مازال على الأرض يمسح الدماء من أنفه وإلى الآن لا يعي ما يحدث، ليقول زياد: "حذاري أن أرى وجهك، هذا درس صغير فقط لأنك راقصتها أيها القبيح".

وخرج بها من المكان بأكمله، ليدفعها بعنفٍ إلى داخل السيارة ويتوجه بها إلى وجهته.

كان الليل شديد الظلمة، والمنطقة التي لم تكن مضائة في وقتها كانت تكشف للعين عن ركام غامض من كتل سوداء. لم يكن يرى سوى ضوءاً خافت جداً، لتظهر له ملامحها التي لطالما عشقها وذاب بسحرها. كان الصمت سيد المكان، لم ينطق بكلمة، علماً أنها جالسة جواره في السيارة وهي أيضاً لم تنطق بكلمة. بل لم تكن تستطيع أن تجمع عبراتها من تبريرات وتلقيها على مسامعه. إلا أنها فيما بعد اتخذت موقف البرود والجمود ولم تأبه له ولغضبه الذي ربما يظهره لها بعد قليل، معللة أن لا شأن له، ولا يحق له التدخل مهما فعلت.

بينما زياد فلم يكن يعلم مابوسعه أن يصنعه معها. يحاول جاهداً كظم غيظه وغضبه منها، إلا أن قلبه ممتلئ جداً بنيران الغضب والقهر اللذان سببتاه له بفعلتها اللعينة.

تحرك صدره بتنهيدة عميقة، كان قلبه مفعماً بكل الدموع التي كان يلتهمها، وكفاه المتشنجتان تتصادمان فوق رأسه، وقد علقت بكل منهما نتف من شعره البني حين رفعهما عنه.

رفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة، لو رسمتها ريشة المصور الماهر لأحرقت القرطاس الذي رسمت به. ليقول:

"ماذا أفعل بكِ"

لم تجبه ولم تنظر له حتى بل تجاهلته وظلت على جمودها ليردف لها:

-لما تثيرين غضبي.

زاد غضبه عندما تجاهلته للمرة الثانية ليمسكها من معصمها ويعتصره بقوة ويصرخ بجنون:

-لماذا لا تجيبين.

ما إن وضِعت في هذا الموقف وعلمت بقرارة نفسها أنها على مقربة من مواجهة جحيمه، حتى نترت يدها بعنف وهبطت من السيارة مندفعة في الطريق غير عالمة إلى أين وجهتها. فقط تريد الهروب منه ومن غضبه.

هبط من السيارة فوراً ولحق بها ليمسكها بنفس الطريقة التي آلمتها قبل دقيقة وأدارها إليه ليقول بشراسة ومن بين أسنانه:

-عندما أتحدث معكِ، لا تتجاهليني بهذه الطريقة وتتركيني أتفهمين.

صرخت بوجهه:

-لا لم أفهم، وسأظل على طريقتي هذه، خير لي تجاهلك بدلاً من التصادد معك والتحدث بموضوع لا طائل منه ولا منفعة بالنسبة لي.

ليجيبها بصراخ مماثل:

-ولكنه منفعة كبيرة بالنسبة لي أيتها اللعينة، أنا أريدكِ لي وسوف تلتزمين بأوامري وستفعلين ما آمركِ به من الآن فصاعداً.

تعلم تماماً أنه لو أراد لاختطفها وتزوجها غصباً عنها، ولن تستطيع فعل أي شيء سوى الرضوخ، فهي ليست بثقله، وليست بوارد مواجهته ومواجهة غضبه. لذلك قررت أن تتخذه بلين وتحدثه بنبرة رقيقة لعل وعسى يرضخ أمام سحرها الأنثوي الخادع في هذه اللحظة.

ابتلعت ريقها واستجمعت كلماتها لتقول بصوت رقيق ونبرة تثير الشفقة لعلها تستضعفه:

-اسمعني زياد، أنا أحترم جداً كونك أحببتني واخترتني أنا من بين كثير من الفتيات والنساء اللاتي تتمنين أن يحظين بوصالك، إلا أنني لا أستطيع أن أبادلك هذه المشاعر، أنا.. أنا صدقني لا أستطيع.

وتنفست الصعداء بعد أن ألقت كلماتها لإنها فعلت جهدٍ كبير بالتحدث بأرق لكنة لديها أمام هذا المخلوق الذي تمقته، واستطاعت أن تضبط نفسها أمامه. بينما زياد فقد شعت عيناه بابتسامة أمل وأعجبته جداً طريقة كلامها معه ولكنتها الرقيقة التي قررت محاورته بها بدلاً من الصراخ والغضب. جملة واحدة جعلته بحالة هدوء تامة – أخذت تعابير وجهه تتلطف تدريجياً الى ان اصبحت هادئة تماماً، والواقع أن ثورات أمثال زياد هي كفوران الحليب تطفئ غليانه قطرة واحدة من الماء الباردة.

ابتسم بوسع ليقول بنبرة رقيقة:

-حبيبتي لا يهم كل هذا، ستعتادين علي شيئاً فشيئاً وستحبينني مع الوقت، صدقيني أنا جميل جداً من داخلي وخارجي. فقط لا تثيرين غضبي وستسعدين معي كثيراً. أنا لست بشع، أحب الهدوء والتفاهم فقط أنتِ افهميني وكوني لي، وصدقيني لن تندمين.

تنهدت بيأس وأغمضت عيناها بقوة لـ لحظات، ومن ثم نظرت له بيأس، أو لنصحح التعبير! نظرة ضعيفة، نظرة كلها خوف وضعف وقلة حيلة، في عينيها نظرة عصفور مضطرب ينهار أمام سحر الأفعى ياسادة.

ابتسمت بتكلف لترفع حاجب وتبدل نظرتها لـ لؤم وتقول بنبرة قوية:

-وإن ألقيت على مسامعك هذه الحقيقة، وقلت لك أني أحب شاب آخر، كيف سيكون موقفك.

ما إن سمع جملتها حتى أمسك خصلات شعرها بقوة وتبدل حاله تماماً ليعود إلى غضبه ويقول بهمس حاد:

-أقسم بالله ياشهد أقتله أمام عينيكِ وأحرق قلبكِ عليه ولا أبالي.

ابتسمت بتهكم ورفعت يدها لتمسك يده التي تشد على خصلات شعرها بقوة وتنترها بعنف لتقول بغضب وتحدي:

-لن أبالي بكل ماستفعله، أنا لا أخافك ياسيد زياد، ولن أخافك، ولن أقبل بك حتى.

ضحك برزانة وهو يحرك رأسه ولم يجيبها لتردف له:

-أعدني إلى منزلي.

أجاب ببرود:

-لن أعيدك قبل أن نتفق على كل شيء.

-لا يوجد شيء نتفق عليه، لقد حسم الأمر، أنا لا أحبك ولن أكون لك.

تنهد مصبراً نفسه ومسح وجهه بعنف ليقول:

-شهد افهمي، أنا أريدكِ، أنا أحبكِ منذ زمن، صدقيني لن تحزني ولن تندمين إن وافقتي على طلبي للزواج منكِ، ستكونين سعيدة ولن أحزنكِ ولن أبكيكِ، أقسم لكِ.

تنهد بنفاذ صبر لتكز على أسنانها وتقول:

-لا أريدك، ألا تفهم! لا أريدك، كيف سأقبل الزواج منك وأنا لا أحبك! كيف ستعيش مع فتاة لا تحبك ولا تتقبلك، انتهينا انسى الأمر.

-وكيف يسعني أن أسكت فؤادي وأخمد نار الحب! إني لا أفكر إلا فيكِ، وأسعد ساعة في حياتي هي تلك التي أكون فيها إلى جوارِكِ، أنظر وأصغي إليكِ بلا انقطاع، ثم أنه لا يهم ماتشعرين به تجاهي، المهم أنني أحبكِ، يكفينا حبي لنعيش بهدوء وسعادة نحن الاثنان.

بلغ ذروة غضبها بحديثه، لقد سرح كثيراً في خياله وأحلامه، صدق نفسه، يظن نفسه أنها ستقبل بهذا الحب المأفون، أجابته بغضب:

-الأفضل لكلينا أن تنسى أنت هذا الموضوع، وتدعني وشأني فقط، لن أكون لك ولو كلفني الأمر حياتي، أموت ولا أكون لك.

وهنا انفجرت في فم زياد قهقهة شيطان، قهقهة لا يملكها رجل إلا حين يفقد رجولته ومعناه الإنساني. ليسألها بنبرة مترقبة وحذرة:

-تعنين أنكِ تتمنين الموت، ولا تتمنين قربي منكِ.

حركت رأسها بإيجاب وبحسم لتتسع ابتسامته الشريرة ويعاود إمساكها من خصلات شعرها ويقول بنبرة خافتة وحادة:

.لعينة، وقحة، حقيرة، حشرة، ليس عندكِ قلب يشعر، أنانية، ولا تبالين سوى بنفسكِ، حقاً أنتِ لعينة.

وعندما كانت تسمع كلماته وشتائمه بدأت ابتسامتها تظهر لتتحول إلى ضحكة ساخرة وهي مخفضة رأسها بسبب طريقة إمساكه لشعرها لتقول بسخرية:

-أووه! كم هذا جميل، الجو جميل وأنا جميلة وأنت المسخ بيننا الذي ينطق بشتائم لطالما اعتدت أن تقولها عندما لا تستطيع الاستحواذ على أحد تريده، ولكن جميل! جميل جداً، أن أسمع هذه الشتائم، سبع شتائم بالهواء الطلق.

وضحكت في آخر جملتها، متعجباً ذلك الرجل من حديثها وموقفها وضحكاتها الساخرة.

تنهد بضيق ليرخي قبضته ويفلتها وهي مازالت تضحك بينما هو ينظر لها ببرود شديد. فصرخ فجأة:

-أحبكِ.

قالت وهي تضحك:

-أي حب!.

فأجاب:

-حب إبليس اللعين.

كانت إجابته مضحكة لذلك ازدادت ضحكاتها، ليتنهد زياد بنفاذ صبر ويقول:

-كفاكِ، كفي عن الضحك ودعينا نتفق.

توقفت عن ضحكاتها ليتحول وجهها الضحوك إلى البرود والجمود، كتفت يدها وقالت بنبرة باردة:

-بالنسبة لي، الأمر محسوم، أنا لن أكون لك، وإياك أن تعترض طريقي بعد الآن، وإلا والله سأقول لوالدي و لجدي عن تسكعك وحبك الأحمق هذا.

وغادرت دون أن تضيف كلمة أخرى. بينما زياد فقد ظل واقفاً يتابع ابتعادها عن ناظريه دون أن يمنعها أو ينطق بكلمة، فيه شيئاً من الجمود الذاهل، وحين ابتعدت عنه بقي واقفاً كالأبله، ناظراً إلى الأمام غير مدرك للأشياء من حوله إلا من خلال ذبذبات متعاظمة تحيل كل شيء إلى أشباح رهيبة، والمعروف أن الألم العظيم قد يُحدث في الغالب مثل هذا الأثر في الذهن البشري. إلى أن اختفت عن ناظريه بسبب العتمة الشديدة في المكان.

لم يفعل شيء سوى الوقوف والتفكير في كلامها ورفضها له، صمت تام، وجمود أتم، ...ومر به ربع ساعة على هذه الحالة، وبدا له أنه قد عمّر قرناً من السنين.

****

عادت شهد إلى منزلها لترى أضواء البيت مضيئة، ابتلعت ريقها واجتاح قلبها الخوف من فكرة اكتشاف والديها خروجها من المنزل بوقت متأخر وعودتها بهذه الساعة. أخذت نفساً عميقاً وشجعت نفسها لتندفع وتدخل بخطوات حذرة.

خرجت منها شهقة خافتة عندما وجدت والديها وجدها جالس في منتصف الصالة، وعلى وجهه أمارات الغضب و الحدة.

ابتلعت ريقها بخوف لتسمع صوت جدها الحاد:

-أين كنتي.

تلعثمت وتخبطت ولم تعلم بماذا ستجيبه، توقف عقلها عن العمل، حتى أنها لم يخطر ببالها أن تسأل نفسها ما الذي أتى بجدها إلى منزلهم في هذه الساعة.

وقف عماد جد شهد ليتقدم بخطوات بطيئة منها، ووالداها يترقبان ما سيحدث، أمها قد بدى على وجهها الخوف على ابنتها، أما والدها فقد كانت نلامحه قريبة لملامح والده بالغضب و الحدة من فعلة شهد.

وقف مقابلاً لها ليقول بجمود:

-لا تستطيعين الإجابة هاا، حسناً أنا سأقول للكِ أين كنتي.

نظرت له بخوف وترقب ليردف لها:

-كنتي في ملهى ليلي، لا يدخله إلا الفتيات العاهرات، أليس كذلك يا ابنة ابني.

لم تبدي أي ردة فعل سوى التحديق به بخوف ليردف لها وهو يدور حولها ببطئ ويقول:

-تسكعتي وراقصتي الشبان، إلى أن أتى رجل وضرب الشاب الذي كنتي تراقصينه وسحبكِ من المكان، أهذا صحيح.

بدأت تفرك يديها وتجول بنظراتها، إلى أن استقرت بنظرها على والدتها لتطلب منها الحماية من خلال رجائها بالنظرات، إلا أن والدتها ناظرتها بقلة حيلة وأخفضت رأسها، فلا أحد يجرؤ على الكلام عندما يكون السيد عماد غاضباً أو يوبخ أحداً من أفراد العائلة.

انتفضت بمكانها وخرجت منها شهقة خائفة عندما سمعت صراخ جدها قائلاً:

-فلتنطقي.

أجابت بتلعثم وخوف:

-صحيح.

همهم ببطئ ووجه نظره إلى والدة شهد ليقول بنبرة لؤم:

-هذه هي تربيتكِ ياسيدة منى، هذه من أنجبتها، ربيتها على الأفعال الرخيصة. أليس كذلك.

ابتلعت منى ريقها وأخفضت رأسها بحزن ولم تجبه بكلمة، ليوجه حديثه لشهد:

-من الرجل الذي ذهبتي معه ها.

ابتلعت ريقها ونظرت له بخوف لتفتح فمها وتغلقه فوراً، فلم تقدر على الإفصاح بهوية من كانت معه، ولا تعلم لماذا لم تتحدث، ليحرك عماد رأسه بإيجاب ويقول:

-حسنا، لا تتحدثي ياشهد.

وجه نظره لابنه ليقول:

-ابنتك لن تخرج من المنزل، إلا عندما أقرر أنا بشأنها، هل تسمع.

حرك رأسه بإيجاب، ليردف عماد وهو ينظر لشهد بتوعد:

-و لتجهزان ابنتكما، هناك شاب حسن الأخلاق طلب يدها مني وأنا وافقت عليه، حفل زفافها في نهاية هذا الشهر، أي بعد خمسة وعشرين يوماً.

وخرج من المنزل دون أن يزيد كلمة، لتجحظ العيون وتطرق القلوب، وخاصة قلب شهد، شعرت بانتفاضة بقلبها زعزعتها وأرجفتها، لتطلق العنان لدموعها ووتنظر لوالديها اللذان كانا واقفين مذهولين من هول ماسمعاه من حديث جدها.

اندفع من مقعده بغضب عندما سمع كلمات ذاك الرجل العجوز ليفاجأ من ردة فعله ناظراً إليه بتفاجأ وعينان متسعة، وكأنه تلقى ضربة قاسية على رأسه من الذي سمعه. حاول زياد تمالك نفسه وعاد لرشده ليلملم شتات نفسه ويهدأ من روعه ويعاود الجلوس ليقول بهدوء:

-عذراً سيد عماد.

-ما الذي حدث لك زياد.

ابتسم ببرود ليقول:

-لا شيء، اعذرني. تذكرت أمراً ما.

همهم له عماد وهز رأسه ناظراً له بعدم تصديق ليقول:

-حسناً، أنت تعلم من هو ماهر! شاب حسن الأخلاق. لذلك اخترته زوجاً لحفيدتي شهد.

شحب وجهه مثل تمثال من المرمر على قاعدة سوداء، حاول تمالك نفسه ليقول بجمود:

-ما المطلوب مني سيد عماد.

-أنت تعلم أنك شخصٌ عزيز على قلبي وقريب جداً من العائلة، وبما أن ماهر ابن أختك فا بالطبع تعرفه اكثر مني. أردت أن آخذ رأيك بهذا الموضوع، هل برأيك يصلح لإن يكون لشهد أم لا.

مسح على وجهه وتنهد بقوة ليجيب:

-إنه حسن الأخلاق بالطبع، شاب واعٍ ومثقف، ولكن اريد أن أعلم! هل أنت إخترته لشهد أم هو من طلبها منك.

ضحك عماد بهدوء ووقار ليقول:

لا أخفيك، لقد لمّح لي ولوالدها عدة مرات حول أمرها ولكن كنت أتجاهل الأمر ريثما أعلم ما رأي شهد، ولكن عندما تأكدت من حسن سيرته وأردت التأكد أكثر منك بالطبع، رأيت أنه مناسب لها.

لقد حاورني بشأنها وطلبها مني منذ يومين، ولكنني لم أعطيه جواباً شافياً بعد.

همهم له زياد بتفهم محاولاً إخفاء جنونه وغضبه وتلك النيران المشتعلة داخل صدره ليجيب:

-إذاً بالتوفيق سيد عماد.

نهض عماد مبتسماً ليصافح زياد ويستأذن منه ليخرج من مكتب زياد. بينما زياد فقد جلس على كرسيه وراء مكتبه وترك جبهته تسقط بين يديه، مغمضاً عينيه بيأس، مفكراً في تلك الصغيرة وبهذه المعضلة التي ظهرت أمامه من عماد بالتحديد.

مكث بعض الوقت محني الرأس، غارقاً في تفكيره. ماكان يفرغ من أرق الليل حتى دخل أرق النهار. رفع رأسه متنهداً بتعب ليمسك هاتفه ويحاول مهاتفة شهد إلا أنها لم تجيب.

مرة واثنتان وثلاثة، إلى أن سأم من المحاولة ورمى الهاتف أمامه بعصبية، ليندفع مسرعاً إلى منزل شقيقته.

****

في منزل بسام والد شهد كان يدور الحوار الآتي:

-بسام، هل حقاً ستدع والدك يزوج شهد على مزاجه.

مسح على وجهه بتعب مجيباً:

-وماذا عساي أن أفعل، هو يرى ماهر حسن الأخلاق ومناسب لشهد.

-ما هذا الكلام الجنوني الذي تنطقه، أوتدع والدك يتحكم بمصير ابنتنا الوحيدة.

أجابها ببرود:

-ولما لا، والدي يعرف مصلحتها جيداً، ثم أن ماهر شاب لطيف وخلوق، ما العيب به.

أجابت بانفعال:

-العيب أنها ستتزوجه غصباً عنها، العيب أنها لا تريده ولا ترغب بالزواج منه.

انفعل بسام وتنهد بغضب لينهض بغضب قائلاً:

-لا يحق لي ولكِ القول طالما أنها خرجت عن قوانينا، ماذا يعني أن فتاة بعمر ابنتكِ تخرج من المنزل في منتصف الليل للسهر بأقذر الأماكن، ماذا يعني أن تخرج عن القواعد التي رسمتها لها ها! هذا يعني بأننا لم نعلم كيف نقوم بتربيتها، والدي معه حق، إن تزوجت شهد ذلك الشاب فسوف تنتهي هذه المهزلة التي وضعتنا بها ابنتكِ وتعود لعقلها. ثم أننا نحن لا نفرط بها لتتحدثي بهذه الطريقة وتظهرين لي أنني الوالد السيء.

نهضت بانفعال وأجابت بصوت مرتفع وعصبية:

-أنا عرفت كيف أربي ابنتي وقد ربيتها أحسن تربيه، والدك هو من يشكك بأخلاقها، وماذا يعني إن أخطأت هذه المرة! هل سنعاقبها بهذه الطريقة! أن نزوجها لشاب اختاره لها والدك، لا ياعزيزي أنا لن أقبل بذلك.

تقدم منها بضع خطوات ليقول بغضب:

-إن لم يعجبكِ الأمر فلتنسي أن لكِ ابنة، واذهبي من غير رجعة.

جملته كانت كافية لتحطم شيئاً في قلبها. بعد ثلاثة وعشرون عاماً تهون عليه بهذا الشكل ويتخلى عنها بسهولة.

ابتلعت ريقها وتمالكت نفسها لتقول:

-حسناً سأذهب، ولكن سآخذ شهد معي.

-لا.

صرخ بسام بهذه الكلمة بغضب ليردف:

-لن تأخذين شهد معكِ، أساساً سبب طلبي منك الذهاب هو أنكِ تحاولين أن تعيقي هذا الزواج، لذلك لن أسمح لكِ بهذا. اذهبي بمفردكِ.

ترقرقت عيناها بالدموع لتشهق بالبكاء وتتوجه إلى غرفتها فوراً وتلملم أغراضها متوجهة إلى منزل أختها التي ليس لها سواها بعد ممات والديها منذ خمسة سنوات.

هي ستذهب فعلاً ولكنها لن تسمح لهذا الزواج أن يتم وتضحي بابنتها ولو كلفها الثمن غالياً

**

بينما عند شهد

فقد كانت بغير دنيا تماماً، لن ترضخ لحكم جدها، ولن تقبل بما آملاه عليها.

لربما ما ستقدم عليه من جنون فعلاً سيكسر عائلة والدها وسيكسر والديها أيضاً، ولكنها لن تقبل بتحكمات جدها وبصمت والدها الدائم والخضوع لوالده كل مرة.

هي لا تعلم أن حبيبها الذي تعشقه منذ سنتين هو نفسه ماهر الذي اختاره جدها زوجاً لها، لذلك لم تلتفت لأي شيء سوى نفسها وستقدم على ما في بالها حتماً.

****

لقد قرر زياد أن يحاور ابن شقيقته باللين والحسنة محاولاً أن يتراجع عن قراره وينسى فكرة الزواج من شهد، إلا أن جواب ماهر وإصراره عليها جعل زياد يستعيد حالاً غضبه وكلماته السامة التي كبحها عن عماد.
ليصرخ به:

-أيها الغبي، لما لا تفهم! من الذي خوّلك لتتحدث بموضوع هذه الفتاة لتطلبها من جدها.

للحقيقة ماهر تفاجأ جدا من ردة فعل زياد وغضبه، غير ذلك هذه أول مرة يرى زياد بهذه الحالة ويصب غضبه عليه. فلطالما كان زياد صديقاً لأولاد أشقائه أكثر من أن يكون خال و عم.

حاول ماهر تفادي غضب خاله ليقول بهدوء:

-خالي أنا لا أفهم، لما أنت منفعل إلى هذا الحد! ألم تكن تشجعني على فكرة الزواج من قبل؟ ألم ترغب بأن تتعرف على الفتاة التي أحبها وأرغب بالتقدم لها.

لم يعي مقصد ابن شقيقته إلا بصعوبة بالغة، إذاً شهد لم تكذب عندما قالت أن لديها صديق وتحبه جداً وسيتقدم لخطبتها.

هذا الرجل تعس الحظ حقاً، ابن شقيقته يحب الفتاة التي يعشقها هو ويريدها له، لقد كان ذلك أكثر ضروب العقاب إثارة لأحاسيسه.

حاول جمع كلماته بصعوبة ليقول:

-أتقصد أن شهد هي....

قاطعه ماهر:

-نعم هي حبيبتي التي كنت أريدك أن تتعرف عليها أنت أول شخص، قبل أن يعرفانها أبي وأمي حتى.

امتثل لقاعدة الصمت ولم يعد يسمع منه حرف، رغم تساؤلات شقيقته وزوجها هو غضبه عن علمه برغبة ماهر بخطبتها، ورغم علامات التساؤل التي تحيط وجوه أشقاء ماهر حول ما حدث، إلا أنه لم يجب على أي منها ولم يلتفت لحالهم ولتساؤلاتهم أبداً.

ماذا يفعل؟ كان الصراع بينه وبين شهد. الآن بينه وبين شهد وبين ماهر وبين عائلته التي ستنصعق عندما يعلمون بما يدور في ذهنه.

تنهد بحدة وتجاهل الجميع ليندفع إلى الخارج فوراً تاركاً الجميع بحالة تساؤل وتاركاً ماهر بالتحديد في حالة خوف وضيق وحيرة.

****

بخطىً بطيئة وحذرة خرجت شهد من منزلها مصرة على تنفيذ مخططها الجنوني، نبضات قلبها يحتد وثبها بصورة غير طبيعية.

السماء الحالكة بسوادها تبعث ذبذبات من القشعريرة في حنايا جسدها لترتجف بخوف.

لم تعلم أن زياد كان واقفاً حائراً متخبطاً قرب منزلها، لا يعلم ما الذي جر قدميه إلى هذا المكان، لربما الشوق، لربما الخوف، لربما القهر.

كل هذا لم يعد يفكر به حالما رآها تخرج من منزلها بحذر في خذه الساعة المتأخرة من الليل.

صعق عندما رآها ليتقدم منها بخطوات سريعة ويمسكها من معصمها ويديرها ناحيته، جفلت عندما شعرت بيد شخص يشدها، وما إن رأته حتى صعقت أضعاف صاعقته التي تلبّست به عند رؤيتها.

ابتلعت ريقها بتوتر لتقول بتلعثم:

-أنت ماذا تفعل هنا.

أجابها بسؤال بدلاً من الإجابة:

-أنتِ ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت المتأخر. إلى أين تنوين الذهاب.

حررت يدها من قبضته لتقول بحدة:

-لا شأن لك، ولا شغل لك معي، أنا حرة. أفعل ما أشاء وأذهب حيثما أشاء.

همهم لها بابتسامة بارة ليجول بنظره في المكان لثواني وهو يمسح ذقنه ببطىء، ليشدها من يدها بقوة من يدها نحو سيارته ويركبها معه بالإجبار، رغم تخبطها وتذمرها.

مئات الأفكار تخبطت في عقله في تلك الثواني فقط، كان ينوي التراجع عن فكرة إتخاذها له عندما علم أن ماهر يحبها، كان سيضحي لأجل سعادة ابن شقيقته. خصوصاً عندما علم أن شهد تبادله نفس الشعور. أراد الإنسحاب، إلا أن مجرد رؤيتها أمامه جعلته يضرب كل تلك الأمور بعرض الحائط ويقدم على ما يجول في خاطره.

حسناً لقد فاز قلبه وفاز حبه لها، وفازت أنانيته أيضاً..

كانت تشتم وتصرخ به، بمحاولة يائسة منها أن يدعها وشأنها وينزلها من السيارة ولكنه لا حياة لمن تنادي، لم يأبه لحالها ولا لكلماتها، كان متجاهلا لها تماما..

ركن سيارته أمام أحد المباني ليهبط من السيارة بكل برود ويتوجه للناحية الأخرى وينزلها غصبا عنها وهي مازالت تشتم به وتحاول الإفلات منه..

طوال طريقهما إلى الشقة وهي لا تنفك عن المقاومة إلا أنه يجرها بعنف فلذلك لم تفلت من قبصته، دخل بها إلى شقة سكنية مرتبة وراقية ونترها بعنف ليغلق الباب خلفه ويقفله بإحكام..

نظرت له بغضب قائلة:

"ماذا تظن نفسك أنت، ألا تفهم، ألا تمل، ما الذي يحدث معك"

تنهد ببرود وتوجه إلى الصالة وتجاهل كلامها كما تجاهل شتائمها ورفضها سابقا، لتندفع نحوه بعنف وتتحدث بنفاذ صبر:

"أجبني، ما الذي تريده مني يا هذا، ألم تمل من أفعالك هذه"

نفث دخان سيجارته ببرود ليجيب:

"اجلسي كي نتحدث ونتفاهم"

تنهدت بنفاذ صبر وجلست بصمت منتظرة كلامه الذي باتت تعرفه عن ظهر قلب ليردف لها:

"ما الذي بينك وبين ماهر ابن أختي"

نظرت له بتحدي قائلة:

"هو حبيبي وسوف نتزوج في القريب العاجل"

ابتسم بجانبيه ليعدل من جلسته قائلا:

"غدا سأذهب إلى جدك وأطلبك منه، أعلم كيف أقنعه لا تقلقي، وبالنسبة لماهر فسوف أبعده عنك بحيث لا يذكرك أو يفكر بك حتى، ستقبلين بي وسنتزوج قريبا، هل كلامي مفهوم"

كانت تتابع حديثه بصدمة وكلما زاد جملة، زادت صدمتها، لتبتسم بعدها بسخرية وتجيب:

"أنت فعلا مريض ويوجد بعقلك شيء أليس كذلك"

نفخ خديه وامتعض لينظر لها ببرود ويقول:

"ستقبلين بي ياشهد وسنتزوج قريبا كما أخبرتك وإلا.."

بتر جملته لتنظر له بترقب منتظرة التكملة، بينما هو تنهد وهو مغمض العينين ليردف:

"وإلا جدك سيخسر كثيرا، أنت تعلمين أنه دخل معي بأكثر من مناقصة وصفقة، وفعليا والدك سيتعرض للضرر كون أنه الوحيد الذي يقوم بتسوية أمور الشركة، وكل شيء لجدك سيصبح في المستقبل لوالدك ومن ثم لك"

ابتسمت بسخرية وأشاحت بوجهها عنه ليقترب ويجلس ملاصقا لها ويردف:

"جدك بحاجتي، وإن طلبتك لن يرفض، وإن رفضتي أنت سأتخلى عنه وسيفلس"

عدل جلسته بأريحية ليردف:

"هو بحاجتي، وحاجته لي لن تدعه يعارض فكرة زواجي منك، لذلك أنا موقفي قوي جدا"

كزت على أسنانها لتلتفت له وتقول بتحدي:

"تعني بأن جدي سوف يبيعني لك من أجل مصلحته أليس كذلك"

أجاب ببرود:

"لطالما كان يسأل عن مصلحته قبل ابنه حتى، فلا داعي للتهرب من هذه الحقيقة"

بقيت صامتة تقلب كلامه في عقلها، فعلا موقفه قوي وموقفها جدا ضعيف، غير ذلك زياد لن يتوانى لحظة عن تسليمها لجدها إن حدث وعاندت أكثر من ذلك، التفتت له وتحدث بلؤم:

"دعنا نعقد صفقة"

وجه كل حواسه لها وأجاب بابتسامة:

"أنا جاهز، ما هي"

أجابت وهي مازالت على نظرتها الباردة ولكنتها اللئيمة:

"سأقبل بالزواج منك، ولكن لن يدوم هذا الزواج، عندما أقرر الانفصال فسوف تفعل ما أريد"

ابتسم بسخرية مجيبا:

"وما فائدة زواجي منك إن كان سيحدث الانفصال"

أجابت بسخرية مماثلة:

"وما الذي ستريده من فتاة تصغرك بخمسة عشر عاما، أنت في أواخر الثلاثين، أعني بعد عشر سنوات ستكون أنت قد هرمت بينما أنا مازلت في ذروتي، لا ألومك، مشاعرك مندفعة نحو فتاة عشرينية تريدها فقط لشهوتك، هل كلامي صحيح زياد، ألا تشتهيني"

قهقه بقوة ليجيب بضحك:

"هل تعتبرين نفسك للشهوة يا شهد، تظنين نفسك سلعة، للمزاج فقط"

نظرت له بغضب وبقيت صامتة لا تعلم بماذا تجيبه وكأنه جعلها تشعر بمدى سخافتها ومكانتها.

ومن السخرية والضحك إلى بروده المعهود يعود ليردف لها:

"لو كنت أريدك لأني أشتهيك وكفى لكنت بحثت عن فتيات الليل وليس أنت، لو كنت أريد الزواج منك ومن ثم الانفصال لما كنت صارحتك بمشاعري وما كنت لأهتم لأمرك أساسا، أنا أريدك لأنني أحبك، وستعلمين بمدى حبي وعشقي لك عندما تسكنين معي في منزل واحد"

لم تلتفت له ولم يعنيها أي كلمة مما قالها ليتنهد زياد بقوة ويقول:

"أعلم أنني اقتحمت حياتك فجأة، اعترفت بحبي لك بشكل مفاجئ، كنت أناني بعض الشيء، أحاول إبعادك عن الشاب الذي تحبينه مع أنني أشك بأنك تحبينه وإنما أعلم كم أنك فتاة لا تهمها سوى الأموال لذلك أوقعتي ماهر في شباكك وهو الأحمق صدقك، أعلم بأن كل شيء يحدث من حولك هو مفاجئ وغريب، ولكن دعينا نعطي أنفسنا الفرصة، أنت تريدين أموال ورفاهية وحياة رغيدة، وأنا أريد قلبك، سنعتبر هذه معادلة، نعتبرها صفقة، سنتزوج وستعيشين معي وسترين كم أنا جدير بك، سأعطيك ما أردت وسآخذ ما أريد، ما رأيك"

كانت تردد كلامه في عقلها، أجل هي فتاة تحب الأموال والرفاهية ولذلك أحبت ماهر ليس إلا، ولكن لماذا لا تبحث الآن عن الأغنى والأقوى، الأقوى في كل شيء، من حيث الحضور والمكانة والأموال والوسامة وكل ما هو مادي ومعنوي وجسدي، فرصة وأتت إليها وستستغلها لصالحها، هي خبيثة، خبيثة لدرجة أن زياد سيفعل لها كل ما تريده وكما يحلو لها.

وبعد دوامة من التفكير وتقليب الكلام والسيناريوهات في عقلها التفتت له ببرود قائلة:

"اتفقنا"

استقبلت شهد كل شيء ببرود، عندما تقدم زياد لخطبتها فعلا لم يجد الرفض من جدها ولا من والدها حتى، ما عدا والدتها التي عارضت جدا ولكن ماجعلها تصمت هو موافقة شهد وإصرارها على الزواج منه، كانت تحاول أن تنصحها بأن هذا الزواج لن ينجح بسبب فارق السن بينهما ولكنها لم تستمع لكلام والدتها أبدا وبقيت مصرة على موقفها.

لم تكن فرحة ولا حزينة حتى، كانت باردة تماما، حتى عندما رأت رقم هاتف ماهر على شاشة هاتفها لم تخاف بل أجابته بكل برود لتسمع صراخه من خلف الهاتف:

"شهد ما هذه الحماقة، كيف تتم خطبتك على خالي كيف"

بقيت صامتة منتظرة أن يفرغ غضبه وقهره بها ليردف لها بصراخ:

"أريد أن أفهم لماذا فعلتي ذلك، كيف توافقين على خالي، كيف تتخلين عني بهذه السهولة، ما مصلحتك منه، ما الذي حدث أجيبي"

وللمرة الثانية لم تجيب، وبعد أن نفذ صبره أردف لها بتهديد ووعيد:

"أقسم بالله يا شهد لن أصمت، لن أصمت على ما فعلتيه بي، طوال السنة الماضية وأنت تشبعيني من كلام الغزل والحب وتوهميني بحبك، أقسم بأني سأخبر خالي بحقيقتك، وسأخبر عائلتك وسترين ما أنا فاعل بك.

أنت حقيرة ياشهد، سافلة، تحبين نفسك فقط، أنا حقا أكرهك، اللعنة عليك وعلى خالي"

ليغلق الهاتف بوجهها وهي دون حراك أو اكتراث، كل ما فعلته هو أنها رمت الهاتف بجانبها وتمددت على سريرها دون حراك بعقل فارغ ومشاعر باردة.

.....

دخل عليه بكل غضب متجاهلا نداءات السكرتيرة لينظر له زياد بكل برود ويأمر سالي بالخروج من المكتب وتركهما بمفردهما.

اندفع ناحيته بكل غضب ووقف أمامه قائلا:

"لما فعلت ذلك"

أجابه زياد ببرود:

"فعلت ماذا"

تحدث ماهر بانفعال:

"لما تقدمت لخطبة شهد وأنت تعلم أني أحبها"

تنهد زياد وخطى خطوتين ليجلس على الأريكة ووضع ساق فوق الأخري ليشير لماهر ويقول:

"تعال واجلس لنتحدث بهدوء"

ابتلع ريقه بصعوبة ومسح على وجهه ليجلس مقابلا لزياد وينصت له، ظل الصمت حليف المكان لدقائق عدة، زياد منتظرا إعصار ماهر، وماهر منتظرا تبريرات زياد.

قطع زياد الصمت ليقول:

"كل ما فعلته لمصلحتك"

التفت له وابتسم بسخرية مجيبا بسخرية:

"لمصلحتي!! هل تسخر مني أم ماذا"

مسح زياد على وجهه ومثل الحزن مجيبا:

"اضطررت لفعل ذلك"

ماهر:

"لماذا"

أطلق زياد تنهيدة حارة مجيبا:

"ماهر أنت شاب مثقف وواع، متفهم ولا تتسرع في الحكم، أعتبرك أكبر من عمرك وأعقل من باقي شبان العائلة، لذلك الشيء الذي سأحدثك به لن يعلم به أحد"

ازداد وتيرة تنفسه وشعر بالقلق ليقول:

"ما الذي حدث أخبرني"

زياد:

"أولا عدني بأني الحديث لن يخرج من هذا المكتب أبدا"

ماهر:

"أعدك، فقط تحدث"

صمت قليلا ليقول:

"منذ فترة وأنا ألاحظ على شهد أمور غريبة، لم تعد كما كانت، تغيرت كثيرا، لذلك حاولت التقرب منها كثيرا لكي أعلم مابها، وأعلم عنها كل شيء.

أنت تعلم أن أمر شهد يهمني لمكانة جدها ووالدها عندي، لذلك ومنذ عدة أيام علمت أن هناك شاب يبتز شهد ويهددها وهي للأسف رضخت له"

ابتلع ماهر ريقه وحرك رأسه برفض مخافة أن يكون ما في باله صحيح ليقول:

"يهددها بماذا، وكيف يعني رضخت له"

تنهد زياد وهو مغمض العيني ليجيب:

"للأسف قام بابتزازها بصورها، ونشر لها صور مخلة على موقع مشبوه، وهددها إن لم تفعل له ماتريد فسيعلم أهلها بهذه الصور، ومقابل حذف الصور هي ذهبت إليه ورضخت له وفعل فعلته معها واغتصبها"

جحظت عيناه ووضع رأسه بين يديه وهو يضرب على رأسه بقوة، بينما زياد يتابع صدمته بقلق ليردف له:

"عندما علمت بالأمر تدبرت أمر الشاب وجعلته يدفع الثمن، وعندما علمت شهد بأنني علمت تغير حالها، أصبحت تبكي وتقسم لي أنه لا ذنب لها بكل ماحدث، وهي فعلا كذلك.

أنا صدقتها وعرضت عليها أن أتزوجها كي نتفادى الفضيحة وعندما تطلب الطلاق أطلقها وبهذا لا تتعرض للفضيحة ولا يعلم أي شخص بهذا الأمر"

بقي ماهر على وضعيته ولم يحرك ساكنا، كان زياد منتظرا ردة فعله، خائف منه وخائف عليه، يعلم بأنه سيوجعه بطريقته ولكن برأيه هذه الطريقة الوحيدة التي سينسى بها ماهر لشهد ويبتعد عنها.

بعد دقائق من الصمت والجمود رفع رأسه ليقول بخفوت:

"لماذا لم تخبرني من قبل، لماذا لم تدعني أقف بجانبها، لماذا لم تدعني أتدبر أمر ذلك اللعين أنا بنفسي"

زياد:

لم أكن لأعرضك للمخاطرة والضرر، ثم أني لم أتوقع كيف ستكون ردة فعلك، أو ماوجهة نظرك، أو ما موقفك، أو ما إجابتك إذا طلبت منك شهد أن تتزوجها"

ماهر:

وماذا تتوقع ردة فعلي الان"

تنهد زياد وتقدم بنصف جسده ليقول:

"افهم يا ماهر، شهد خافت منك وخافت من أن لا تصدقها ولا تقف بجانبها، كما أنها خافت من أن لا تصدقها وتفضحها، لذلك عندما عرضت عليها الزواج وافقت دون تردد"

صمت ماهر وظل جامدا ليردف له زياد:

"سأتزوج شهد وأنت حاول أن تنسى الأمر أو تناسى على الأقل، لا أعلم كيف ولكن يجب أن تنسى، لا أريدك أن تشعرها بأنك تعرف شيء، هذا كان طلبها، سأتزوجها لفترة وإن بقيت مشاعرك نحوها كما هي فسأطلقها من أجلك، لا مانع عندي، ولكن يجب أن تبقى على علم أنها تعرضت للاغتصاب وأنا فعلت كل هذا من أجلها أولا وآخرا، أما بالنسبة لك فلا أعلم ما نظرتك لها الآن"

نظر له ماهر بقهر وابتسم بسخرية ومن ثم نهض بتثاقل ليخرج من المكتب دون أن يتفوه بكلمة تاركا زياد خلفه يتآكل من ندمه وحزنه عليه، ولكن كما ذكرنا من قبل، دائما تفوز أنانيته، أنانيته بشهد بالتحديد.

كانا على درجة كبيرة من الصدمة والذهول فور دخول ماهر إلى حفل زفاف شهد وزياد، لم يتوقعان أبدا حضوره.

كان يتقدم بخطوات ثابتة ومتزنة، جامد الوجه، بارد المشاعر، يحمل بيده باقة ورد جميلة لكي يقدمها للعروسين ويبارك لهما بكل أدب وينسحب من المكان بهدوء.

تنهدت شهد بحزن بينما زياد لم ظل ينظر للأمام ببرود إلى أن طلبا رقصة للعروسين، فلم يلحق أي منهما أن يكمل مافي جوفه من أحزان بمشاعرهما المضطربة.

وبعد ساعتين تقريبا قضتهما شهد بمشاعر مرتابة، انتهى الزفاف على خير وتوجه العروسان إلى منزلهما.

كان جالسا بصمت، بحالة مزرية، حبات العرق تصبب من جبينه، يلهث بعنف وينظر إلى اللاشيء بجمود.

كان المكان منقلب رأسا على عقب جراء ما فعله من تحطيم لكل الأثاث من حوله في منزله الذي أكمله بجهده وتعبه من أجلها لكي يلقى مقامها وطمعها.

يتقدم منه شقيقه سامر ويجلس بجانبه بصمت بعد أن رأي هذه الفوضى ليضع يده على كتفه ويتحدث محاولا التخفيف عنه:

"انساها يا أخي، ليست من نصيبك، انسى أمرها، أنت تستحق الأجمل والأوفى منها"

وكأنه لا يوجد غيره في المكان، لم يلتفت لسامر إو لكلامه، بقي صامتا على وضعيته وجلسته ولم ينبث ببنت شفه.

أردف له سامر بعد دقائق:

"كل مافعلته قبل قليل يعبر عن غضبك وقهرك أعلم ذلك، ربما شفيت غليلك قليلا أفهمك، ولكن سننسى كل شيء بعد هذه اللحظة، ستعود كما كنت، بمزاحك وشخصيتك المرحة وتتقدم في حياتك، لا تتوقف عندها، أكبر خطأ هو أن تدمر نفسك هكذا، أعلم بأنك تحتاج إلى بعض الوقت، ولكني واثق من أنك ستتقدم في حياتك"

نظر له ماهر ببرود وابتسم بتهكم وأشاح بوجهه عنه ولم يجيبه، يظن شقيقه أن شهد تخلت عنه بملإ إرادتها، لا يعلم ما الذي حدث معها وبأنها مجبرة على هذه الزيجة، وفي الواقع كلاهما لا يعلم إكاذيب زياد وأنانيته بشهد.

دخلا بهدوء إلى المنزل ومن ثم إلى غرفة النوم، لتتقدم شهد وتجلس على السرير بإهمال بينما زياد واقفا في منتصف الغرفة يراقبها بصمت.

نظرت له ببرود ووقفت لتقول بلهجة آمرة:

"تعال وفك لي سحاب الفستان من الخلف"

رفع حاجبيه بذهول وتقدم دون أن ينطق بحرف ليفعل لها ما أرادته بينما هي ممسكة بالفستان من جهة الصدر، بحيث إن أفلتت شهد يديها يسقط الفستان من عليها.

ابتعد عنها خطوتين لتنظر له ببرود قائلة:

"ماذا، هل ستبقى واقفا هنا، هيا اخرج"

بلغت دروة غيظه من لهجتها وكلامها ليقول بغيظ:

"لن أخرج، ثم أن هذه غرفتي وهذا منزلي، أقف أو أجلس في المكان الذي أريده"

ابتسمت بسخرية وبحاجب مرفوع لتبعده عنها بعنف وتتوجه إلى غرفة الملابس وتغلق الباب خلفها بعنف، بينما هو تنهد وخلع سترته بهدوء وجلس منتظرا إياها ريثما تخرج.

بعد قرابة الساعة وبعد أن انتهيا من عشائهما صعدت شهد إلى الغرفة دون إن تنتظره ليلحق بها والغيظ يأكله.

رآها ممددة على السرير فتقدم وتمدد بجانبها لتبتسم شهد بسخرية وتقول:

"ألن تفعل فعلتك لتكتمل رجولتك ياسيد زياد"

نظر لها بغضب لينهض بنصف جسده ويقول:

"ما الذي تقصدينه أنت، ماذا تظنينني أصلا، هل تظنين أنني رجل شهواني مثلا، هل تظنين أنني تزوجتك لهذه العلاقة فقط"

ابتسمت وهي تلعب بخصلات شعرها مجيبة:

"وما حاجتك بفتاة تصغرك بكثير غير لهذه الأشياء"

كز على أسنانه بغضب ليقول:

"شهد لا تستفزيني، أخبرتك من قبل لو كنت أريدك لهذه الأشياء لكنت بحثت عن فتيات الليل"

شهد:

"هل أفهم من كلامك أنك لن تقترب مني"

بصراخ وغضب أجابها:

"لا لن أقترب ولن أنام معك في نفس الغرفة حتى"

ونهض بعنف ليخرج من الغرفة وقبل خروجه تحدثت شهد وهي تنام بإريحية على السرير:

"أحسنت، هذا يريحني كثيرا، لإنني لا أطيقك"

نظر لها بغضب وقهر في آن واحد ليخرج من الغرفة ويصفع الباب خلفه بينما شهد تنهدت بقوة لتمسك بهاتفها وتبعت رسالة لماهر محتواها:

"اعذرني وسامحني، أتمنى لك حياة هنيئة"

ورمت الهاتف جانبها بإهمال وغطت بنوم عميق.

صباح اليوم التالي استيقظت شهد وهي تشعر بصداع لتنهض وتغسل وجهها ومن ثم هبطت إلى الأسفل لترى زياد يحتسي قهوته، تقدمت وجلست أمامه لتقول:

"أين الفطور"

نظر لها بلؤم مجيبا:

"هل تظنينني خادم أبيك مثلا، انهضي وحضري الفطور"

ضحكت بسخرية قائلة:

"لا لا، لم أعتد على هذه الأشياء في منزل أهلي، أنا كنت أطلب والخادمة تنفذ، لذلك إريد خادمة، إضافة لا تحلم إن أفعل أي شيء في المنزل ريثما تجلب لي خادمة"

تنهد بنفاذ صبر ليقول من بين أسنانه:

"كنت سأحضر خادمة دون أن تطلبين"

شهد:

"حسنا اطلب لي طعام، وستظل تطلب لي طعام ريثما تجلب خادمة!

عض على شفتيه كاتما غيظه، ليسمعان رنين هاتف شهد، أجابت شهد:

"أهلا أمي، أجل أنا بخير، ممم إنه بخير أيضا"

وبحركة قاصدة منها فتحت شهد مايك الهاتف ليسمع زياد وتكمل حديثها مع والدتها:

"أجل أجل الأمور تمام، ههه نعم كل شيء تمام، لا أنا بخير ومرتاحة، حسنا أمي وداعا"

وأغلقت الخط وهي تنظر لزياد مغيظة إياه، لتقترب منه بحيث أصبح وجهها مقابل وجهه قائلة:

"لم أشأ أن أخبر أمي أنه لم يحدث شيء بيننا، كانت ستعتبرك..."

ومع تتابع جملتها كانت تتحول نظرته للحدة شيئا فشيئا، لتبتسم شهد وتبتعد عنه مردفة:

"هيا أريد أن أفطر"

نهض بعنف ودفع الطاولة التي أمامه بقدمه ليقع على الأرض كل ما عليها ويتوجه إلى الغرفة التي قضى ليلته الماضية بها بكل غضب.

كان يأخذ رواق الصالة ذهابا وإيابا والغضب يعمي عينيه، لقد خرجت دون أن تخبره أو تأبه لحاله حتى، منذ عدة ساعات وهو يحاول مهاتفتها ولكن هاتفها مغلق، ولم تكلف خاطرها أن تخبره بأنها خارجة أو تطمئنه عنها.

بعد قبيل من الوقت وصلت وهي تحمل عدة أكياس لتدخل إلى الصالة وترى زياد ينظر لها بغضب، قلبت عينيها بملل ورمت الأكياس على الأريكة بإهمال، لتجلس وتنادي على الخادمة، ثواني وأتتها الخادمة راكضة خوفا منها ومن معاملتها السيئة لها لتقول لها شهد:

"قومي بتحضير العشاء أنا جائعة"

حركت رأسها بإيجاب وخرجت بصمت وزياد يراقب الوضع بذهول، مسح على وجهه بعنف ليمسكها من معصمها ويوقفها قائلا:

"أريد أن أفهم ما الذي تحاولين فعله، لماذا تتصرفين وكأنك تعيشين بمفردك، ألم تكلفين نفسك عناء أن تخبريني إلى أين ستذهبين حتى"

أبعت يده عنها بتملل لتقول:

"أرجوك زياد، لست متفرغة لهذا الكلام، ثم أني لست صغيرة لكي تخاف علي، كنت أتسوق"

زياد:

"أظن أنك تستطيعين أن تخبريني أنك ستذهبين للتسوق، منذ عدة ساعات وأنا لا أعلم أين أنت أو ما أخبارك"

جلست بإهمال لتجيب بتملل:

"حسنا حسنا، في المرة القادمة سأخبرك أنني سأذهب"

تنهد بحدة وحاول تملك أعصابه ليقول بهدوء:

"أنت تتعبيني يا شهد، تتعبيني وتتعبين أعصابي، انتبهي جيدا لإن صبري لن يطول عليك"

نظرت له بسخرية وأمسكت بجهاز التحكم لتقلب بقنوات التلفاز وتجاهلت أمره ليردف لها:

"أحسني معاملة نهى، ليست عبدة لديك، أنا أحذرك ياشهد"

ضحكت شهد لتقول بضحكة:

"هل يهمك أمرها، ممم لم إكن أعلم ذلك، حسنا سأزيد من معاملتي السيئة لها لا تقلق"

وللمرة الثالثة يكتم غيظه منها ويخرج من المنزل بغضب.

عاد زياد إلى منزله ودلف بهدوء ليسمع صوت شهد وهي توبخ نهى، تقدم إلى المطبخ ليرى نهى صامتة وساكنة وشهد توبخها على ما اقترفته، فقد أوقعت كأس وانكسر دون قصدها.

تنهد زياد بحدة ليقول:

"شهد لا داعي لهذه الانفعالات، الفتاة لم تقصد"

التفتت لزياد لتقول بحدة:

"وما شأنك أنت بيني وبينها، هي خادمتي وأنا أوبخها متى ما أردت، لا تتدخل بيني وبينها"

أجابها بغضب وصراخ:

"شهد، لقد تماديتي كثيرا، تماديتي لدرجة أني سأحطم رأسك، أقسم لك"

شهد بغضب:

"لأجل ماذا، لأجل هذه اللعينة، اللعنة عليك وعليها، أنا لن أبقى في هذا المنزل"

تتوجه شهد إلى الغرفة وتبدأ بجمع أغراضها في حقيبة متوسطة الحجم، ليدخل عليها زياد بغضب عارم ويمسكها بعنف ويقول:

"ما الذي يحدث معك شهد"

نترت يدها بعنف لتجيب:

"ابتعد عني، لا شأن لك بي، اذهب لتلك اللعينة التي تدافع عنها"

زياد بغضب أكبر:

"أدافع عنها لأنك بالغتي فس توبيخها، وإن كسرت كأس ماذا حدث يعني، هل ستنقلب الدنيا"

شهد وهي تلملم أغراضها:

"بالنسبة لي أجل ستنقلب، أنا سأذهب، ولن أبقى عندك، فلتذهب للجحيم أنت وهي"

زياد وقد فلتت أعصابه:

"هل ستذهبين ونحن لم يمضي سوى عدة أيام على زواجنا"

ابتسمت بسخرية لتجيب:

"أجل، وما المانع، ثم أنه هل تسمي هذا زواجا مثلا"

ينظر لها بذهول فيقول:

"ما الذي تريدينه بالتحديد، أنا لم أقترب منك لأني أعلم أنك لم تحبيني بعد، ولن أقترب منك حتى تكونين معي بكامل إرادتك"

تجيبه بلؤم:

"وأنا لن أكون معك بكامل إرادتي، اذهب للخادمة فمقامك من مقامها صدقني"

رفع يده ليصفعها بينما هي تنظر له ببرود، ليتمالك نفسه ويكور قبضته ويضرب الحائط بعنف ويقول:

"حسنا ياشهد، سأذهب للخادمة، ولكن أقسم لك بأنني سأجعلك تعودين إلي راكعة"

يخرج من الغرفة ومن ثم من المنزل بأكمله بينما شهد تبدل ملابسها وتحمل حقيبتها وتترك له المنزل.

في اليوم التالي استيقظت شهد وهي تشعر بصداع فظيع، هبطت إلى الأسفل لتنضم لوالديها اللذين يجلسان ويحتسيان القهوة.

كانا يمطرانها بالاسئلة وهي لا تجيبهما على أي منها، فقط تتململ وتمتعض، لتقول باختصار:

"إنه يفضل الخادمة علي، ثم أني لم أرتاح له ولم تعجبني الحياة برفقته"

يجيب والدها:

"هل تمازحيني ياشهد، ماذا تعني لم تعجبني الحياة برفقته، ألستي أنت من وافقتي عليه بملأ إرادتك"

شهد باستهزاء:

"تقصد أن والدك طمع بأمواله وبالصفقات التي سيكسبها من ورائه، لذلك لم يعترض عليه رغم فارق السن"

بسام بغضب:

"لا شأن لي بوالدي، لو قلتي لي لا تريدينه لما أجبرتك عليه"

شهد:

"أنا وافقت عليه لأجل أمواله فقط"

ينظر لها بسام بذهول وصدمة، بينما والدتها تنظر لها بخيبة، سمعوا صوت جرس الباب لتنهض منى وتفتح فيندفع عماد جد شهد إلى المنزل بكل غضب، ليتقدم ويمسك شهد من معصمها ويقول بغضب:

"أيتها الغبية كيف تتركين منزل زوجك"

شهد بوقاحة و حدة:

"وما شأنك أنت، أنا حرة أتركه متى ما شئت"

يهبط عليها بالصفعة التي تسقطها على الأريكة لتنظر له بذهول وأعين دامعة بينما هو يصرخ بها:

"ألا تفهمين أن هذا الرجل لا يُعاند، لقد تزوج عليكِ، تزوج من الخادمة أيتها الغبية"

وسكن الجميع من هول الصدمة والذهول وعم الصمت بالمكان.

في ركن غرفتها كانت شهد جالسة، تضم ركبتيها إلى صدرها كأنها تحاول حماية نفسها من عواصف القهر والغضب التي تعصف بها. كانت عيناها تلمعان بالدموع، لكنها كانت أكثر إصراراً على عدم السماح لها بالانزلاق. لم تكن تعلم أنه سيفعل بها هذا، أن يجرح كبرياءها بهذه الطريقة الفادحة. صحيح أنها لم تكن تحبه، ولكن زواجه من أخرى كان بمثابة طعنة في قلب أنوثتها وجرح عميق في كبريائها.

تتنهد شهد بحدة، وكأنها تحاول طرد تلك المشاعر المتلاطمة، ثم تمسح دموعها بعنف. عيناها تحدقان في الفضاء، بينما تتصاعد في داخلها رغبة الانتقام. "سأريه ما معنى أن يُجرح الكبرياء"، فكرت في نفسها.

فجأة، قُطع تفكيرها بصوت طرقات على الباب.

"تفضل"، أجابت بصوت مملوء بالاستغراب.

دخلت والدتها، تحمل في عينيها نظرة تحمل شيئًا من القلق.

"حبيبتي، هناك ضيفة تريد رؤيتك"، قالت والدتها بهدوء.

تعجبت شهد وسألت:

"من تلك الضيفة؟"

تنهدت والدتها بعمق قبل أن تجيب:

"تعالي وستعلمين. هيا، الحقي بي."

ترددت شهد للحظة، لكن فضولها دفعها للنزول. وعندما وصلت إلى الأسفل، تجمدت في مكانها عند رؤية نهى، تلك التي كانت تعمل في منزلها والتي أصبحت الآن ضرتها.

صدمة عبرت وجهها قبل أن يتحول إلى غضب مكبوت. نظرت إلى نهى بحدة، قائلة:

"ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

وقفت نهى أمامها، هادئة كأنما لا يهمها شيء، وأجابت برصانة:

"أتيت للحديث معك. أرجو أن تعطيني قليلاً من وقتك مدام شهد."

زفرت شهد بضيق، ثم جلست أمام نهى التي كانت تزيح خصلة شعرها خلف أذنها بتلك الحركة التي كانت تثير فيها مشاعر متضاربة. جلست كل منهما في صمت ثقيل، وكأن الكلمات كانت تتردد في الأفق، تنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر.

بعد لحظات من الصمت، كانت شهد هي من كسرت جليد التوتر.

"ماذا تريدين؟" سألتها بحدة، محاولةً إخفاء مشاعرها المتضاربة.

نهى ابتسمت بلطف، وكأنها لم تتأثر بنبرة شهد الحادة.

"أريد أن نتحدث بصراحة. نحن الآن في نفس القارب، أليس كذلك؟"

"نفس القارب؟" ردت شهد بسخرية. "أنتِ من أخذتِ ما كان لي. لا أعتقد أن هناك أي قارب يجمعنا."

شهد كانت لا تزال غاضبة، عيناها تتألقان بالنار.

"لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنك أن تقبلي بأن تكوني زوجة ثانية. هل كنتِ تظنين أن الأمر سيكون سهلاً؟"

نهى أخذت نفساً عميقاً، محاولةً أن تبقى هادئة رغم انفعالات شهد.

"أنا لم أختار هذا، شهد. زياد هو من أقنعني."

"أقنعك؟" صاحت شهد، وكأنها لم تصدق ما تسمعه. "هل تعتقدين أنه من السهل أن تكوني زوجة لرجل متزوج؟"

"لم يكن لدي خيار آخر." قالت نهى بوضوح وعينيها مليئتين بالجدية. "شقيقيّ كانا يتصرفان بطريقة ظالمة تجاهي، وكنت بحاجة إلى رجل يحمي ظهري. زياد عرض عليّ الأمان."

"أمان؟" ردت شهد، وهي تشعر بالغضب يشتعل بداخلها. "هل هذا ما تسميه أماناً؟ أن تأخذي زوجي مني؟"

"لا أريد أن أكون عدوة لك، شهد." أكملت نهى وصوتها يفيض بالصدق. "لكن زياد كان الشخص الوحيد الذي رأيت فيه فرصة للخلاص من الظلم الذي كنت أعيشه. لقد كان وعده لي بحياة أفضل."

شهد بغضب.

"هل أرسلك زياد لإقناعي؟"

نهى نظرت إليها بجدية.

"لا، أنا من أتيت من تلقاء نفسي."

"أنتِ هنا لتبرري لنفسك وجودك كزوجة ثانية، أليس كذلك؟" ردت شهد بنبرة حادة. "زياد لم يكلف نفسه حتى ليأتي ويشرح لي الأمر أو يبرر لي هذا الوضع."

نهى شعرت بالضغط، لكنها حاولت أن تبقى هادئة.

"أنا هنا لأتحدث معك، لأساعدك على فهم ما يحدث."

صاحت شهد، وكأنها لم تصدق ما تسمعه.

"لا أحتاج إلى فهم. كل ما أحتاجه هو أن تعودي من حيث أتيتِ."

"شهد، أنا لا أريد أن أكون عدوة لك."

قالت نهى، محاولَة أن تصل إلى قلبها.

لكن شهد لم تسمح لها بالاستمرار.

"هذا ليس مهماً بالنسبة لي. لا أريد سماع أي شيء منك."

ثم التفتت وخرجت من الصالة، الغضب يتصاعد في داخلها، تاركةً نهى واقفة هناك، تشعر بالعجز والإحباط.

••

كان جالس في صالة المنزل يهزّ قدمه بتململ، وكأن كُل ثانية تمرّ تمثل سجناً مؤقتاً، اضطرابات قلقه كانت تترنح بين جدران الصالة، بينما كان ينتظر قدوم نهى بفارغ الصبر. وعندما سمع صوت طقطقة المفاتيح، تسارعت نبضاته، ونهض مسرعاً نحو الباب. كان يتمتم في نفسه بأملٍ في التفاهم.

"ماذا حدث؟ هل تفاهمتِ معها؟" نطق بلهفة، كأن كلماته تعبر عن ثقل همومه.

تنهدت نهى بعمق، وعيونها تعكس خيبة أمل متزايدة.

"للأسف، لا، لم تتفهم ولم تعطني فرصة للحديث كثيراً." كان صوتها هادئاً، لكنه يحمل في طياته مرارة التجربة.

تراجع زياد وجلس مرجعاً برأسه إلى الوراء، لكي يستند على ظهر المقعد، مشاعر الخيبة تتجلى في عينيه، وبدا وكأن ضوء الأمل قد خفت لتردف نهى..

"تلك المرأة لا تفهم شيئاً، كانت غاضبة جداً، و لم تتقبلني نهائيّاً! حتى أنها غاضبة من لا مبالاتك تجاهها، لأنها تريدك أن تبرر لها فعلتك."

زياد.

"تعني أنها تريدني أن أذهب إليها لأبرر لها، وأعود بها إلى منزلنا؟"

"ربما تقبل إن ذهبت أنت، لكن..." ترددت في قولها، تخشى ما قد يعنيه هذا الأمر.

"ولكن ماذا؟ ما بك، نهى؟" سألها زياد بتلك النبرة المتلهفة، متسائلاً عن خبايا افكارها.

"هل ستطلقني إن طلبت منك ذلك؟ هل ستتخلى عني؟"

تسرب التوتر إلى صوتها، وكأن الكلمة الأخيرة تحمل في طياتها انكساراً عميقاً.

طمأنها زياد محاولًا استعادة ثقتها.

"لن أطلقك ولن أتخلى عنك، نهى. أنتِ تحت حمايتي الآن، ولن أقبل على نفسي أن أتركك بعد أن وعدتك بالأمان."

كلماته كانت كأشعة ضوء تخترق ظلام القلق الذي يغلف قلبها.

ابتسمت نهى بارتياح، وكأن الثقل الذي كان يعتصر صدرها بدأ يتلاشى.

"وأنا أعدك أنني لن أزعجك ولن أزعج شهد، لن تسمعا صوتاً لي، صدقني، لا أريد شيئاً سوى الأمان معك."

ابتسم زياد في هدوء، تملكه شعور بالطمأنينة. نهض من مكانه بتصميم. "سأذهب إليها، وسأرى ما الذي سيحدث."

توماً له بابتسامة خفيفة، بينما هو يغادر المنزل بصمت، وداخلها بقيت مشوشةً، تتأمل حالها. كانت تفكر في شهد، وفي كيفية تعاطيها معها كضرة لها، وليس كخادمة سابقة. دارت في خلدها أسئلة كثيرة: كيف ستثبت وجودها في منزلٍ يحوي على تاريخٍ غامضٍ، وأمورٍ معقدة، وكيف ستتمكن من عدم ازعاج تلك الأنثى التي تحمل في قلبها الكثير من الجروح والكبرياء. كانت تتمنى أن تتمكن من إيجاد صوت لها، وسط كل هذا الصراع الدائر حولها.

.....

توقفت شهد عند منشور على فيسبوك فجأة، عندما قرأت أن زياد قد تزوّج للمرة الثانية. كانت تجلس في مكانها، عيناها تتنقلان بين التعليقات التي تفيض بالإهانة والاستهزاء. "تزوج سريعاً"، "ما الذي حدث؟"، "ماذا فعلت شهد لتجلب لنفسها ضرة؟"، وغيرها من الكلمات المؤلمة التي كانت كسهام موجهة نحو قلبها. شعرت بأن الغصة تخنقها، فابتلعت ريقها بصعوبة، ثم رمت الهاتف على السرير بجانبها بغضب.

دخل زياد بهدوء، مما زاد من انفعالاتها. حين رأته، ارتفعت نبضات قلبها، ووقفت مستعدة للهجوم:

"ماذا تريد؟ لماذا أتيت هنا؟" صاحت وصوتها يحمل نار الغضب.

نظر إليها زياد ببرود وكأن كل شيء طبيعي. وضع يديه في جيوبه، وقال:

"ألم تطلبيني؟ جئتُ لأبرر لكِ."

"لا يوجد بيني وبينك أي شيء! لا أريد سماع تبريراتك السخيفة. أريدك أن تطلقني وتتركني بحالي!" كان صوتها عالياً ومملوءاً بالاستنكار.

رد زياد بصبر، كأنه يتفهم حجم الألم الذي يعتريها:

"أفهم غضبك و حدتك، لكن عليك أن تفهمي أن ما فعلته كان من أجل نهى، وليس لأغاظتك كما تظنين."

"أوه، كم أنت حنون وصاحب قلب عطوف!" سخرية شهد كانت واضحة. "وهذا القلب العطوف متاح فقط للنساء المتشردات أمثال نهى."

يتنهد بنفاذ صبر، فتردف له:

"لم أحزن لأنك تزوجت، ولا لأنك فعلت ما فعلت. على العكس، لقد أظهرت وجهك الحقيقي ومعدنك الصدأ. لقد اخترت من هي في مستواك الأرذل، بينما أنا ابنة أصول وعائلة تشرف الجميع. لذا مكاني ليس بينكما، أنت وهي تناسبان بعضكما كثيراً. أما أنا، فسأجد من يستحقني ويستحق قلبي."

وكأن صبره بدأ ينفد مع كل كلمة، لكنه حاول استجماع هدوءه. حين أنهت جملتها، انتفضت مشاعره واندلعت ثورته. أمسك بشعرها بشدة، مما جعلها تشعر بألمٍ شديد، ثم تحدث بصوت يحمل سُحب الغضب:

"اسمعيني، شهد. سأتغاضى عن كل شيء حدث سابقاً، وعن كلماتك الحالية، وستعودين معي إلى المنزل. أنتِ زوجتي، وستبقين زوجتي إلى آخر العمر. هل تسمعين؟"

هزها بعنف في آخر كلماته. لتبصق على وجهه، فرد فعل زياد كان مبتسماً بنوع من الشر، قبل أن يتعامل معها بعنف مفرط ويقبلها مما تسبب في نزف شفتيها. حاولت الابتعاد عنه بعنف، والدموع تتراقص في مقلتيها، ثم قال ببرود مريب:

"تجهزي وحضّري ثيابك قبل أن أريك غضبي الذي لم ترينه بعد. صدقيني، لمصلحتك أن تسمعي كلامي وتأتين معي."

أنهى جملته بخطوات متسارعة نحو الباب، تاركاً شهد واقفة، عيناها تخترقان الجدران بنظرات حادة. وما إن خرج حتى انفجرت بالبكاء، تشعر بحقيقة الانكسار والضياع في قلبها.

صرخ بها جدها بغضب، كان صوته كالرعد في ليلة عاصفة:

"ألا تفهمين؟ قلت لك يجب أن تعودي إليه، لن أقبل أي نقاش في الموضوع."

كانت غير مبالية، لم تعر غضب جدها أي اهتمام، وكأن كلماته لم تكن أكثر من همسات تتلاشى في الهواء. أجابت متمردة:

"لقد تركتك تتحكم بحياتي كثيراً، وسنتوقف عند هذا الحد. القرار قراري الآن؛ لا أحد له شأن بي بعد الآن."

تقلصت ملامح عماد بغضب كبركان على وشك الانفجار:

"هل تجرؤين على عصيان أمري أيتها اللعينة؟ هل تظنين بأنني سأدعك على مزاجك؟"

انطلقت في سخرية عابرة:

"أجل، ستدعني على مزاجي. لن أستمع إلى كلامك حول العودة إليه. لقد حسمت أمري، أريد الطلاق منه. فلتبلغه أن يسرع في هذا الموضوع."

أنهت جملتها بجرأة، ما جعل عماد يصرخ في فورة من الغضب:

"ألا تعلمين ماذا سيحل بنا بفعلتك تلك، أيتها اللعينة؟"

لكنها كأنها لم تسمع، تجاهلته وغادرت المكان. انطلق الصراخ خلفها وأدخل والد شهد نفسه في الحوار متدخلاً بحزم:

"أبي، اهدأ أرجوك، كيف يمكنك أن تطلب عودتها إليه بعد أن تزوج عليها في الأسبوع الثاني من زواجهما؟"

حاول عماد أن يهدّئ نفسه، لكنه كان غير قادر على كبح جماح مشاعره:

"لقد شرح لي الأمر، وأخبرني لماذا تزوج عليها. يجب عليها أن تعود إليه!"

بسام الذي كان ينصت بقلق، تساءل بفضول:

"لماذا أنت مهتم بعودتها إليه، بالذات؟"

اجتاحت عماد موجة من الانفعال:

"لأنه هددني بصريح العبارة! قال إنه سينتهي كل شيء بيننا في العمل إذا لم تعود إليه شهد."

بسام بسخرية يتمتم بمرارة:

"ما أوقحه!"

عماد استجمع قواه ليواصل:

"أنت تعلم الوضع الكارثي الذي نعانيه، والانهيار في شركتنا الذي نتعرض له، إنه الأمل الوحيد لنا حتى نعيد ما هدمته شركتنا. لذلك يجب عليها أن تعود إليه. اعتبره زواج مصالح، صفقة، أي شيء! المهم أن تقنع ابنتك بعودتها إليه، وإلا لن تكون سعيداً بما سأفعله بها، صدقني."

أنهى جملته بانفجار من الطاقات السلبية، ثم غادر المنزل تحت وطأة الغضب. بينما ظل بسام واقفاً ينظر إلى زوجته بيأس ويتنهد بضيق، قبل أن يتوجه إلى غرفته، حيث استسلمت الأفكار المتناقضة إلى قلبه.

••

فتح الباب ودخل زياد مع شهد إلى المنزل. استقبلتهما نهى بابتسامة ودودة، مشعلةً أجواء الغرفة:

"أهلاً بك شهد، سررت بعودتك."

لكن شهد نظرت إليها بتعالي، وكأنها لا تبالي بوجودها، ثم جرّت حقيبتها خلفها ودخلت إلى الصالة لتجلس. تنهد زياد بنفاذ صبر، وضع يده على كتف نهى في محاولاً تهدئة الوضع، لكن شهد قاطعتهما وطلبت بقلة احترام:

"لو سمحتِ نهى، خذي حقيبتي وضعيها في غرفتي. وإن استطعتِ قومي بوضع ثيابي في مكانها."

تفاجأت نهى للوهلة الأولى، ثم ابتسمت بتكلف ونهضت لتؤدي طلبها، لكن زياد أوقفها بحزم:

"توقفي نهى، لست مضطرة لعمل شيء لها، هي ستفعل كل شيء يخصها بنفسها."

ردت شهد ببرود وازدراء:

"لماذا؟ أليست الخادمة لدي؟"

صبر زياد نفد بسرعة، وصوته ارتفع بقوة:

"لا، ليست خادمة، إنما هي زوجتي مثلها مثلك. وإذا كنت تريدين خادمة، فسأجلب لك غداً امرأة لتعمل هنا، رغم أنني لا أفضل ذلك."

ابتسمت شهد بسخرية متفاجئة بكلماته:

"ستجلب خادمة أخرى؟ هاه، ولماذا؟ لكي تتزوجها أيضاً؟"

أنتهت جملتها بضحة ساخرة، ما جعل زياد يضغط على أسنانه، قائلاً:

"شهد، لا تتمادي. لقد تحملت سخريتك كثيراً، توقفي عند هذا الحد."

إلا أن شهد التي بدت مصممة على التعبير عن قهرها، استمرت بسخريتها:

"وياترى، هذه المرة الخادمة التي ستجلبها من ستكون؟ هاربة أم مغلوبة على أمرها ومعرضة لظلم أحد أخوتها أم أهلها"

وقف موجهاً لها نظرة حادة، وكان على وشك الانفجار، إلا أن نهى تدخلت بلباقة:

"زياد اهدأ، شهد لا تقصد شيئاً، أرجوك، لا تزيد الوضع سوءاً."

تململ زياد بعصبية، وهو يكز على أسنانه:

"ألا ترين وقاحتها؟"

صرخ بكلمته الأخيرة، فرسمت شهد ابتسامة استفزازية على وجهها:

"أنت، سيد زياد، هذا هو مستواك! أنا أذكرك بمقامك فقط، وأخبرك بما سيحدث إذا جلبت خادمة أخرى، لأنهم يليقون عليك كثيراً!"

ابتسم زياد بحدة، مجيبًا:

"معك حق، ولذلك تزوجتك أنت أولهم."

ثم غادر الغرفة، بينما شهد، التي أثارت استفزازها كلماته، نهضت بعنف قائلة:

"الآن أصبحت بمثابة خادمة لديك أيها الحقير! لقد دمرت حياتي بأكملها، أنت و جدي اللعين. أيها المتغطرس المعقد، أيها الضعيف الذي لا يفلح سوى بالتهديد والوعيد، فاشل ولعين وعديم الإنسانية! عكفت طوال تلك الفترة على اللحاق بي كالمهووس، فقط لكي أقبل بك، والآن تشبهني بالخادمة. أقسم لك بأنني سأدعك تبكي بدل الدموع دماً!"

كان يستمع إلى حديثها من جانب غرفته، وما إن أنهت كلامها حتى أغلق الباب بعنف. بينما شهد تنفست بحدة ثم نظرت إلى نهى التي كانت واقفة بتوتر أمامها، لتردف:

"وأنت حسابك عسير جداً، فلتريني كيف سيحميك السيد زياد."

توجهت شهد من الصالة إلى غرفتها، التي كان زياد بداخلها. دخلت بعنف قائلة:

"اخرج من غرفتي! اذهب إلى زوجتك الثانية. أنا سأنام هنا حتى يأخذ الموت أحدنا!"

نهض زياد بانفعال متوجهاً نحوها وأمسك بمعصمها مغلقاً الباب خلفه، وقال:

"شهد، صبري لن يطول عليك. توقفي عن استفزازي، لأني لا أضمن ألا أفجر غضبي بك."

ردت شهد بتحدٍ:

"لن أجادلك كثيراً. أقولها بوضوح: اخرج من غرفتي، وإلا أقسم لك أنني سأعود من حيث أتيت ولتذهب للجحيم أنت وجدي."

أنهت جملتها بصراخ، فحاول تماسك أعصابه، وقف مقابلاً لها متحدثاً بهدوء:

"هل تظنين أنني هددت جدك لكي أذلك أو أذل العائلة؟ لماذا لا تفهمين أنني لست قادراً على فعل شيء لك سوى أن أعيدك بهذه الطريقة؟ لو أردت أن أعيدك غصباً لكنت جررتك من شعرك أمام والديك. لكنني ما زلت متمالكًا لأعصابي. افهمي أنني أريدك وأنني أحبك، أعلم أن كل التطورات التي حدثت أنا سببها وأتفهم مرارة الشعور الذي أنت به ولكنني لم أعد أعلم كيف أتعامل معك، دعينا نبدأ من جديد شهد، دعينا نعطي فرصة لحياتنا وزواجنا"

استمرت شهد في صمتها، تتابعه ببرود فتابع برفق:

"بالنسبة لنهى فلن أظلمها، ستظل زوجتي أيضاً. لكنك الوحيدة التي تمتلكين قلبي. ضعي نفسك مكاني، شخص كان يقصد حمايتك واستجار بك، وأنت باستطاعتك حمايته، فهل ستصدينه ياترى؟"

تنهدت شهد بنفاذ صبر، وتوجهت نحو السرير جالسة بهدوء، قائلة:

"لو سمحت، أنا تعبت من المشاكل، ولا أنوي أن أوجع رأسي. اخرج من الغرفة، ولا تقترب ناحيتي أبداً."

استفزته كلمتها فقال بغضب:

"إذاً الزمي حدودك واحترمي سكان هذا المنزل، فأنت من أتيت وبدأت بإهانة الفتاة."

ابتسمت شهد بسخرية:

"أووه، الفتاة، وهل ما زالت فتاة؟ ألم تحرك غريزتك تلك المرأة، وتفعل معها ما أنت معتاد عليه طوال حياتك؟"

ظهر الغضب في عيني زياد، وكانت هذه المرة النيران تتأجج في داخله. ورغم عدم رغبته في مد يده عليها، لم يجد بداً سوى أن يُحطّم كل شيء حوله. وعندما انتهى من إفراغ غضبه، تحدث بأنفاس لاهثة:

"صدقيني، ستندمين على كلامك السام. زمن الاحتواء والدلال انتهى، وسترين معاملة مختلفة بعد الآن."

ثم خرج بغضب من الغرفة، بينما ظلت شهد تنظر لمكانه الفارغ ببرود، وهي تتوعد بأفظع الأفعال له. الآن بدأت الحرب بينهما، وستظهر له من هي شهد.

تُرخي شهد بجسدها المُثقل على أريكة مخملية بلون النبيذ الفاخر، تُحيطها جُدران غرفتها كأنها أسوار سجنٍ فاخر، تُذكّرها بعزلتها المُختارة. منذُ أن وطَئت قدماها عتبة منزل زياد، لم تُغادر تلك الغرفة إلا لضرورةٍ قصوى، وقت أن يُعلن الجرس عن موعد تناول الطعام. تتجنّب أيّ لقاءٍ أو حديثٍ مع زياد أو نهى، كأنّهما جُرحٌ مفتوح، و اقترابها منهما يعني نزفًا لا ينتهي.

تسعى شهد للانفصال عن زياد، لكن بِخطواتٍ هادئةٍ محسوبة، كأنها تلعب على حبلٍ رفيعٍ فوق هاويةٍ سحيقة، تخشى أن تُخطئ الخطوة فتسقط في الهاوية. تركّز كل أفكارها على إيجاد طريقةٍ للتّحرر من قيود هذا الزواج بأقل الخسائر. كانت تنتظر أن يُنهي جدها أموره المالية مع زياد، لكي لا يكون له حُجّة عندما تطلب الطّلاق.

بين فينةٍ وأخرى، كانت شهد تستعيد شريط ذكرياتها، تُحاول فهم كيف انقلبت حياتها رأساً على عقب منذُ أن ظهر زياد في أفقها. لم يخطر ببالها يومًا أن تُصبح زوجةً له، وأن يقترن اسمها باسمِ الرجل الذي خطفت بهجتها. كان زواجه من نهى بمثابة طعنةٍ أخرى لقلبها الذي ينزف ألماً.

تستحضر شهد في ذاكرتها صورة "ماهر"، ذلك الشاب الذي أحبّته من كل قلبها، وهو الذي بادلها نفس المشاعر. تُدرك أن زياد هو من حرمها من عشقها، وسرق فرحتها، ودفن أحلامها. لولا تدخّله، لكانت اليوم زوجةً سعيدةً بين أحضانه.

تتنهد شهد بحرارةٍ تُعبّر عن كُلّ ما يجول في خاطرها من ألمٍ وغضب. تُمرّر أناملها بين خصلات شعرها الحريرية كأنّها تُحاول فكّ عقدة الحيرة التي تُحيط بها من كلّ جانب. وفجأة، يكسر صوت رنين هاتفها سكون الغرفة، لتنظر إلى الشاشة بعينين مُتّسعتين، لقد كان "ماهر" هو المُتصل! لم تستطع تصديق ذلك، فمنذ ثوانٍ كانت تُفكّر به، والآن يأتيها صوته عبر الهاتف.

ابتعلت ريقها بتوترٍ وهي تُجيب بصوتٍ مرتعش:

"ألو؟"

تتدفق كلمات "ماهر" عبر الهاتف، تُلامس أوتار قلب "شهد" المُتعبة، مُحييةً فيها ذكريات سعادةٍ غابرة:

"كيف حالُك؟".

تُغمض شهد عينيها للحظة، تحاول أن تُخفي دمعةً حائرةً تترقرق على طرف جفنها. يُلامس صوته أعماق روحها، كأنّه نسمةٌ باردةٌ في يومٍ قائظ. تُجيب بصوتٍ مُرتجفٍ يحاول عبثاً أن يُخفي حنينها:

"أنا بخير، كيف حالُك أنت؟"

يُسيطر البرود على نبرة صوت ماهر وهو يُجيب:

"بخير أيضاً، أريد أن أُقابلكِ لأمرٍ هامّ، هل ممكن؟".

تتساءل "شهد" بقلقٍ عمّا دهاه ليطلب لقاءها، وتبتلع ريقها بصعوبةٍ قبل أن تُجيب:

"لماذا؟".

يُفسّر "ماهر" بإيجاز:

"موضوعٌ مهمّ، يجب أن أُقابلكِ لأتحدّث معكِ به، ولكن أرجو أن لا يعلم خالي زياد بِشَيءٍ".

تُفكّر "شهد" سريعاً في كيفية لقاء "ماهر" دون إثارة شكوك "زياد"، وتقول بصوتٍ هادئ:

"حسناً، غداً لديّ دوامٌ في الجامعة، سأنتهي عند الساعة الثانية، سأُرسل لك الموقع غداً".

يُنهي "ماهر" المكالمة بعد أن يتفقا على موعد لِقائهما. تُغلق شهد الهاتف ويُعلَن قلبها تمرده داخل صدرها، يقفز بين ضلوعها كعصفٍ هائج. تعود بذاكرتها إلى الوراء، إلى أيامٍ جميلةٍ كانت فيها قريبةً من "ماهر"، تتذكّر ضحكاتهما ونظراتهما الحانية.

وفجأةً، يُفتح باب الغرفة بعنف، لتنتفض فزعاً وهي تُحدّق بـ "زياد" الذي يدخل الغرفة بخطواتٍ ثابتة. يُحدّق بها ببرودٍ قائلاً:

"مع من كنتِ تتحدّثين؟".

تضع يدها على قلبها المُنبض بعنف، وتُحاول أن تُخفي ارتباكها وهي تُجيب:

"مع صديقتي "ريمة"، لديّ دوامٌ في الجامعة غداً".

يُومئ "زياد" برأسه قائلاً:

"حسناً تعالي لكي نتناول الغداء، لقد أعدّت "نهى" الطعام الذي تُفضّلينه".

تُطلق "شهد" ضحكةً ساخرةً وهي تُجيب:

"ومن أين لها أن تعلم بالطعام الذي أُحبّه؟".

يُتجاهل "زياد" محاولاتها لإثارة استفزازه، ويُجيب ببرود:

"أنا أخبرتها، هيا تعالي".

تُومئ شهد برأسها بصمت، وما أن يُغادر الغرفة حتى تُسارع بحذف سجل مكالمة "ماهر". تُلقي بِهاتفها على السرير وتُغادر الغرفة بخطواتٍ متثاقلة، تتّجه نحو طاولة الطعام وقلبها يعتصرُ حيرةً وخوفاً. تُدرك أنّها تلعب بلعبةٍ خطرةٍ، وأنّ أيّ خطأٍ قد يُكلّفها الكثير!

••

غمر المقهى في هدوءٍ مُريح، تفوح فيه رائحة البنّ الطازج مُختلطةً بنفحاتٍ حلوة من المعجنات الطازجة. كانت الأنوار خافتة، مُضيفةً لمسةً دافئة على المكان البسيط ذو الديكور الأنيق. جلست شهد على إحدى الطاولات، مُتسمّرة في مكانها، وقلبها يضرب بعنفٍ وكأنه طائرٌ مُحاصرٌ في قفصه الصدري. كانت عيناها مثبّتتين على الباب، تنتظر بفارغ الصبر وصوله في أي لحظة. كان التوتر يشتّت أفكارها ويُربكها.

ظهر ماهر أخيراً، يسير بخطواتٍ واثقة نحوها. ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، بينما غرق قلبها في بئرٍ من الحزن. أحست بوخزٍ في حلقها، كأنّما غصةٌ علقت به. وقفت تستقبل قدومه ببطءٍ، مُحاولةً إخفاء الاضطراب الذي أنهب ملامحها.

مد ماهر يده يُصافحها قائلاً:

كيف حالك يا شهد؟

ابتسمت شهد ابتسامةً مُجبرةً وهي تجيب:

بخير.

جلسا مقابل بعضهما البعض في صمتٍ مُطبق، تُخيّم عليهما سحابةٌ من الأسى. كانت عيونهما تَتلاقى ثمّ تَتَفادى النظر إلى بعضها البعض. كانت تُراقبه بنظراتٍ مليئةٍ بالندم والألم، بينما كان هو ينظر إليها بعتابٍ وألمٍ مُخبأ خلف قناعٍ من البرود. لولا اقتراب نادل المقهى ليسألهما عن طلبهما، لبقي ذلك الصمت الخانق يُسيطر على الجوّ بينهما.

تقدم النادل بابتسامةٍ لطيفة وسأل:

أهلاً، ماذا ستطلبان؟

أطلق ماهر زفيراً طويلاً قبل أن يُجيب بصوتٍ هادئ:

قهوة بدون سكر، والآنسة تشرب القهوة بالحليب.

أومأ النادل برأسه مُبتسماً وهو يُدوّن الطلب، ثمّ قال:

دقائق ويكون الطلب جاهز.

نظرت شهد إلى ماهر قائلةً بابتسامةٍ باهتة:

ما زلت تذكر مشروبي المفضل.

أصدر ماهر ضحكةً مُرةً وهو يطرق على الطاولة بأصابعه، قائلاً:

أجل، لطالما كنتِ تطلبينه في جلساتنا التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

صمتت شهد بخجلٍ وهي تُخفض رأسها، ليُردف ماهر بصوتٍ بارد:

أظنّ أنني أذكر مشروبكِ المفضل، لكنّني لا أتذكّر أنّكِ تُحبين الذهاب إلى الملاهي الليلية وشرب الكحول هناك.

رفعت شهد رأسها بصدمة، لتُواجه نظرات ماهر الثاقبة.

تابع ماهر حديثه بصوتٍ خالٍ من التعابير:

لقد عَلِمتُ بذهابكِ إلى ذلك الملهى، وأنّ خالي زياد ضرب الشاب الذي كان معكِ حينها.

وكأنّها تلقت ضربةً قوية، وسألت بصوتٍ مرتعش:

هل من أجل ذلك طلبت حضوري؟

راقبها ماهر وهو يتحدث ببرود:

لا، بل أريد أن أعلم من هو الرجل الذي قام بتهديدك وبالاعتداء عليك.

تجمدت ملامح شهد من كلماته، كأنما ألقى عليها دلواً من الماء البارد. لم تستوعب ما قاله، وبعد لحظات من الصمت المُطبق، قالت بصدمة:

ماذا تقول أنت؟ أيّ شابّ هدّدني واعتدى عليّ؟

كان ماهر يراقب ملامحها المُتحجّرة بتعجّب، وعندما أتى النادل بطلبهما، ابتلع ريقه واستعاد هدوءه قليلاً، وقال:

الشاب الذي قام بتزييف صور لك وهدّدك بها، واغتصبك، مما اضطرّك لِـ الزواج من خالي. لقد أخبرني خالي أنّه علم بما حصل لك، لذلك عرض عليكِ الزواج لِـ ستركِ، وأنتِ قبلتِ. في حينها تساءلت لماذا لم تُخبريني بذلك، لماذا لم تَدعيني أقف بجانبكِ في محنتك. لا تعلمين ماذا حلّ بي عندما سمعت الخبر، شهد أنا لا أريد منك شيئاً، لكنّني أشعر أنّ هناك لغزاً في الموضوع، كيف يتزوّجكِ خالي، وكيف تتمردّين عليه وتتركين منزله ليتزوج من الخادمة! أنا منذ شهرين لا أعلم ما هي الحياة الطبيعية، لا أعرف النوم ولا الأكل ولا الشرب ولا العمل، كلّ ما أُفكّر فيه هو أنتِ وحياتك وزواجكِ وما حلّ بكِ. من حقي أن أطلب تفسيراً لما يحدث!

أنهى ماهر جملته وانفعاله يتصاعد، بينما كانت شهد تتابع كلامه بصدمة، وما إن أنهى حديثه حتى انهمرت دموعها بغزارة وهي تضع يدها على فمها، غير مُصدّقة ما تسمعه.

ينهض عن كرسيه ببطء، مثقلاً بهمومِ كلماته التي كانت على وشكِ الإنفجار، ليجلس بجانب شهد واضعاً يده على كتفها بحنوٍ محاولاً أن يُهدئ من روعها قبل أن يُلقي عليها قنبلة كلماته، قائلاً بصوتٍ خافتٍ متردد:

"شهد... اسمعيني، أنا لا أريد منكِ شيئاً، صدقيني، ولا أريد أن أُربك حياتكِ أكثر مما هي عليه الآن، كل ما أريده هو راحة قلبي، فقط أخبريني الحقيقة، ما أن تُجيبيني على ما سأقوله حتى أهدأ وأتركك لِـ حالكِ، لن أطلب منكِ غير تفسيرٍ لما يحدث، لما يفعله زياد".

رفعت شهد عينيها إليه، غارقة في بحرٍ دموعها المنهمرة، تُحاول أن تستجمع شتات نفسها، تحاول أن تُرتب كلماتها لتخرج من بين شفاهها مُرتجفةً:

"لا علم لي بما تتحدث عنه يا ماهر، صدقني، لم يحدث أيّ شيءٍ من ذلك، إنها مجرد أكاذيب زياد وقذارته، لقد نصب لي فخاً لكي يفوز بي، ولكن صدقني لم يحدث أيّ شيءٍ من ذلك، أنا لا أطيقه، بل أكرهه، لقد كنتُ مُجبرةً على الزواج منه من قِبل جدي، هددني بِـ خراب شركته وإسقاط ديونه على رأسِ أبي إن لم أعد إليه، ماذا كان بإمكاني أن أفعل أكثر من ذلك؟".

تجمدت ملامح ماهر، وأصابه الخدر من وقع كلماتها، كأنها صواعق تتوالى على مسامعه، تُحطم بداخله كل معاني الأمل والسعادة. أرخى يديه على الطاولة يُصارع في داخله مشاعر الخيبة والحيرة والغضب، غير قادرٍ على تصديق ما آلت إليه الأمور، وكيف تحولت حبيبته إلى ضحيةٍ لِـ طموح زياد اللامُبرر، ليُغمض عينيه بألمٍ وهو يُخفض رأسه قليلاً مستسلماً لِـ تيارِ أفكاره السوداوية.

و في لحظةٍ فاصلة، يشعر كلاهما بِـ وجودِ شخصٍ ما يقف عند مدخل المقهى، شخصٌ يعرفهما جيداً، شخصٌ يحمل في طياتِ هدوئهِ برودة قارصة، ليلتفتا في نفس اللحظة نحو الباب، حيثُ يقف زياد، بِـ أناقتهِ المُعتادة التي تُخفي خلفها وحشاً ماكراً، يُراقبهما بنظراتٍ ثاقبة كأنها نيران تشتعل في مُقلتيه. تجمدت ملامحُ شهد من فرطِ الصدمة، بينما ارتسمت على وجهِ ماهر ابتسامةٌ ساخرة، مُمتزجةٌ بِـ مشاعر الغضب والاحتقار.

يتقدم زياد نحوهم بخطواتٍ واثقة وكأنّه ملكٌ يدخل إلى مملكته، قائلاً بصوتٍ هادئ يشوبه نبرة من التعالي والسخرية:

"هل انتهت جلستكَ معه ياترى؟".

تُطيل شهد النظر إلى زياد، وعيناها تتطايرُ شرراً من الغضب والكراهية، ثمّ تُشيح بِـ وجهها عنه بِـ ازدراء رافضةً أن تُكلمه أو حتى أن تنظر إليه.

يُحاول زياد أن يُخفي غضبه من تجاهلها له، ليُردف قائلاً بِـ سخريةٍ لاذعة مُوجهاً كلامه لِـ ماهر:

"أظنّ أنّه ليس من اللائق أن تدعو زوجة خالكَ إلى مقهى بدون علمي، أليس كذلك ياماهر؟".

ينهض ماهر من مكانه بِـ حركةٍ سريعة تكاد تُطيح بِـ الكرسي عن الطاولة، ويقف مُقابلاً لِـ زياد مُتحدياً بِـ نظراته، قائلاً بِـ صوتٍ حازم غاضب:

"من الآن فصاعداً أنا عدوّكَ يا زياد، وسأُعلمكَ كيف تغدر بي، وتأخذ من كانت حبيبتي بِـ أسلوبٍ دنيء مثلكَ! يا... يا خال!".

يلقي ماهر كلماته الأخيرة بِـ حِدّةٍ غاضبة، ثمّ يُغادر المقهى بِـ خطواتٍ سريعة بعد أن يلقي على الطاولة بعض الأوراق النقدية لِـ سداد الحساب.

يتابعه زياد بنظراتهِ الباردة الحادة، غير مُبالياً لِـ تهديداته التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع، ثمّ يلتفت إلى شهد ويُشير لها أن تنهض مُتجهاً نحو الباب. تستسلم شهد لِـ إشارة زياد وتنهض من مكانها صامتةً، وقلبها يشتعلُ كَـ الجمر المُشتعل من فرط الغضب والإهانة، ليُخرجا من المقهى سوياً، بينما تُخيّمُ عليهما سحابةٌ من الصمت المُريب الذي ينذر بِـ عاصفةٍ هوجاء على وشكِ الإندلاع.

خرج زياد وشهد من المقهى بخطوات متثاقلة، وسرعان ما وصلا إلى سيارته. فتح زياد الباب بعنف وأشار لشهد أن تركب. نظرت إليه بملامح جامدة ثم صعدت إلى السيارة بدون أي مقاومة. أغلق زياد الباب بقوة، وكأنه يحاول إفراغ غضبه في الحركة، ثم دار حول السيارة وصعد إلى مقعد السائق.

كان الصمت الثقيل يلفّهما مثل غمامة سوداء، حتى بدأ زياد القيادة بسرعة جنونية، يده تعتصر المقود بشدة، وعيناه تلمعان بوهج من الغضب المكبوت.

بعد لحظات من الصمت القاتل، توقف زياد فجأة في مكان معزول بعيداً عن الأعين، أوقف السيارة بعنف وأطفأ المحرك، ثم التفت إلى شهد، وعيناه تقدحان شرراً.

قال بصوت منخفض لكنه مشحون بالغضب:

"من تظنين نفسكِ؟ ماذا كنتِ تفعلين مع ماهر في المقهى؟ هل تجرؤين على مقابلته من وراء ظهري؟"

شعرت شهد بوخز في صدرها من شدة كلماته، لكنها حاولت الحفاظ على هدوئها وردت بصوت هادئ:

"كنتُ أريد أن أتحدث معه... عن الماضي."

لم يتحمل زياد هدوءها الزائف، فقد شعر أن صبره بدأ ينفد، فاقترب منها، يميل بجسده نحوها وكأنه يحاصرها داخل السيارة، وقال بصوتٍ أعلى:

"لا تكذبي عليّ! أعلم جيداً أنكِ لا تزالين تفكرين به، لكن لا تنسي أنكِ الآن زوجتي، ولن أسمح لكِ بأن تفعلي ما تشائين دون موافقتي!"

رفعت شهد رأسها بشجاعة لتقابله بعينين تملؤهما التحدي، وقالت بنبرة جريئة:

"أنا لستُ ملكك يا زياد! لقد أخطأت بحقي، وقيدتني في هذا الزواج رغماً عني، فلا تتوقع مني أن أكون الشخص الذي ترغبه."

شعر زياد وكأن ناراً اشتعلت في صدره من شدة الغضب، قبضته ترتعش وهو يحاول بكل قوته، لكنها وبالرغم من كل ما تشعر به من خوف وقلق، قررت أن تُظهر لزياد أنها لن تكون ضحيةً سهلة له. رفعت رأسها بقوة، محاولةً تخليص ذراعها من قبضته، وقالت بصوتٍ ثابت:

"أفعل ما شئت يا زياد، لكنني لن أسمح لك بأن تحكمني بالخوف. لستُ ضعيفة كما تظن، ولن أكون لعبةً في يديك لتستمتع بكسرها متى شئت."

تسارعت أنفاس زياد، كانت مزيجاً من الغضب والذهول من جرأتها. أطلق سراح ذراعها بعنف، وكأنها كانت جمرةً أحرقت يده، واستدار في مقعده، وضرب المقود بقوة محاولاً السيطرة على مشاعره التي كانت تتأجج بداخله مثل بركان على وشك الانفجار.

بعد لحظات من الصمت، استجمع زياد نفسه، ثم قال بصوت هادئ ولكنه يحمل في طياته وعيداً وخطيراً:

"حسناً يا شهد، سنرى من سينتصر في النهاية. أنتِ تظنين أنكِ قوية بما يكفي لمواجهتي، لكنكِ لا تعرفينني جيداً بعد. ستكتشفين قريباً أنني لا أسمح لأحد بأن يعصى أوامري، وسأجعل حياتك جحيمًا إن لزم الأمر، حتى تتوسلي لي كي أصفح عنكِ."

كانت كلماته كالسياط التي تنزل على ظهرها، ولكنها لم تُظهر أي علامة على الضعف. نظرت إليه بعينين ثابتتين، وقالت بهدوء:

"افعل ما شئت يا زياد، لكن اعلم أنني لن أستسلم لك. إذا كنت تظن أن السيطرة على حياتي هي الطريقة التي ستحقق لك السعادة، فلتكن. لكنني سأبقى واقفة، حتى لو اضطررتُ للوقوف وحدي."

أطلق زياد زفرةً طويلة، وكأنه يحاول التخلص من الغضب الذي كان يتآكله من الداخل. لم يكن يريد أن يتطور الأمر إلى هذا الحد، ولكن شهد بجرأتها وتحديها جعلته يدرك أن السيطرة عليها لن تكون بالأمر السهل. شعر بأن تلك المواجهة هي بداية لصراع طويل بينهما، صراع لن يتنازل فيه أي منهما عن مبادئه.

أدار المحرك من جديد، وانطلق بالسيارة بسرعة في الطريق المعتم، حيث كان الصمت سيد الموقف. كلاهما كان غارقًا في أفكاره، يدرك أن المعركة بينهما لم تنتهِ بعد، بل هي فقط بدأت.

.....

بعد عدة أيام

تجمع أفراد العائلة في الصالة الفسيحة بمنزل الجد، حيث كانت الأجواء مشحونة بالكثير من التوتر والترقب. كان الجميع يجلسون في صمتٍ مهيب، غير مدركين تماماً ما الذي سيحدث، ولكنهم شعروا بوجود شيء غير عادي. في هذه اللحظة، دخل ماهر إلى الصالة، وبدا عليه الانفعال الشديد. لم يكن من عادته أن يظهر بتلك الحالة، مما جعل الجميع يُصاب بالقلق.

نظر الجد إلى ماهر بتمعن وسأله بصوتٍ عميق:

"ماهر، ما الذي يحدث؟ لماذا تبدو على هذا القدر من الاضطراب؟"

ابتلع ماهر ريقه بصعوبة، ثم وقف في وسط الصالة، ناظراً إلى والديه أولاً ثم إلى جميع الحاضرين، وأخيراً إلى خاله زياد، الذي كان يجلس في زاوية الغرفة متكئاً ببرود، كأن شيئاً لم يكن. شعر ماهر بأن الوقت قد حان لكشف الحقيقة، وأن صمته لن يكون إلا بمثابة خيانة لضميره ولشهد.

بدأ ماهر حديثه بنبرة حازمة:

"لقد صمتت يا جدي، لكنني لم أعد أستطيع السكوت على ما يجري. هناك أمور خطيرة يجب أن تعلموها عن زياد."

ساد الصالة توتر كبير. أما زياد، فظل ثابتاً في مكانه، عينيه ضيقتان كصقر يراقب فريسته، ولكن قلبه كان ينبض بعنف داخله.

تابع ماهر قائلاً:

"زياد... خالي، لم يكن يوماً الشخص الذي تظنونه. لقد ارتكب أفعالاً لا يمكن السكوت عليها. لقد خدعنا جميعاً، خاصةً شهد. لقد أوقعها في فخٍ دنيء، أجبرها على الزواج منه بعد أن تلاعب بها واستغل ضعفها وموقفها. لقد كذب علينا جميعاً، حتى إنني اكتشفت الآن أنه لفق الأكاذيب حول شهد ليبرر أفعاله القذرة. لقد دفعها إلى حافة الهاوية، ثم ظهر بمظهر البطل الذي ينقذها فقط ليتمكن من السيطرة عليها وتحقيق مصالحه الخاصة."

علت همسات القلق بين أفراد العائلة، وأخذت العيون تتجه نحو زياد الذي بدأ يشعر ببركان الغضب يغلي بداخله. حاول أن يحتفظ برباطة جأشه، لكن كلمات ماهر كانت كالصواعق التي تضرب أعماقه، فقد أتم حديثه بما يعرفه وافتضح أمر زياد، وحدثهم بكل ماجرى، منذ أن قابل شهد حتى ظهور زياد. مما جعله يتململ في مكانه بغضب.

والد زياد، الذي لم يكن يتوقع أن يسمع مثل هذه الأمور عن ابنه، وقف فجأة وهو يصرخ:

"زياد! ماهذا الذي أسمعه!"

نهض زياد ببطء من مكانه، يحاول أن يحافظ على مظهره المتماسك، لكنه كان يدرك تماماً أن الحبال بدأت تلتف حول عنقه. اقترب من والده بنظراتٍ يملؤها الحقد والغضب، وكأنّ نظرته تقول لماهر أنه لن يمرر له هذا بسهولة.

بصوتٍ مرتعشٍ ومليء بالخيبة، قال والد زياد:

"هل ما يقوله ماهر صحيح؟ هل فعلت كل هذا بشهد؟ هل هذا هو الابن الذي ربيته؟ لقد جلبت العار لنا جميعاً، كيف تجرؤ على القيام بمثل هذه الأفعال؟ كيف تجرؤ على استغلال فتاة ضعيفة لتحقيق مآربك القذرة؟"

شعر زياد بأن كل شيء ينهار من حوله. الحضور كانوا ينظرون إليه بصدمة واشمئزاز، وخاصة شباب وبنات العائلة الذين اعتبروه كصديق لهم وليس كخال أو كـ عم. وكأنه ليس فقط أخطأ، بل انتهك الثقة التي منحوها له. لم يكن يصدق أنه في مثل هذا الوضع، وقد افتضح أمره أمام الجميع. حاول الدفاع عن نفسه، لكن الكلمات خانته، ولم يجد ما يقوله ليبرر أفعاله.

بينما كان الصمت يسيطر على الجميع، صرخ زياد بغضبٍ عارم، غير قادر على تحمل المزيد من الاتهامات:

"أنتم لا تفهمون شيئاً! كلكم تظنون أنكم قضاة وحكام على حياتي! لن أسمح لأحد بأن يحكم عليّ، أنا من يتحكم في حياتي، ولن أسمح لأحد بأن يملي عليّ ما يجب أن أفعله!"

وبسرعة، استدار زياد وغادر الصالة بعنف، وكأنّه يحاول الهروب من الواقع الذي بات ينهار أمامه. فتح الباب بقوة، وخرج من المنزل كالإعصار، غاضبًا من نفسه ومن الجميع. في تلك اللحظة، أدركت العائلة أن زياد قد سقط من أعينهم كثيراً.

.....

انفجر زياد داخل المنزل كالإعصار، محملاً بالغضب المكبوت. توجه مباشرة نحو شهد، الذي بدا واضحاً من تعابير وجهه أن الغضب الذي يحملّه لا يرحم. بينما كانت نهى تراقب الموقف بقلق، اقتحم زياد غرفة شهد بعنف، مما جعلها تنتفض في مكانها، وهي ممسكة بهاتفها المحمول. لم يمنحها زياد فرصة للتفكير، فقد سحب الهاتف منها بعنف وكشف على الشاشة اسم ماهر.

بصوت يفيض بالغضب والتهديد، تحدث زياد عبر الهاتف:

"إذا تجرأت على التواصل معها مرة أخرى فسأحطم عظامك أيها الحقير! لقد تجاوزت حدودك بما فيه الكفاية، ولن أسمح لك بالتمادي أكثر من هذا. احذر من غضبي، فإن انفجر سأنسى أنك ابن شقيقتي. إياك أن تواصل الاتصال بها مجدداً!"

ثم قذف الهاتف على الأرض، فتحطم إلى قطع صغيرة. تحول نظره إلى شهد، فاشتعلت نيرانه أكثر. أمسك بشعرها بقبضة محكمة وسحبها بعنف، مما جعلها تصرخ من الألم، وكأن رأسها سيُقتلع. صرخ عاكساً قهره وغضبه:

"كل هذا بسببك! كل هذا بسببك أيتها اللعينة! لقد فضح ذلك الوغد كل شيء أمام العائلة!"

ردت شهد بصوت مفعم بالألم والغضب، موجهة لعنة قاسية:

"تستحق أكثر من ذلك! أتمنى أن تنهال عليك المصائب كالمطر! اللعنة عليك!"

زاد زياد من ضغط قبضته على شعرها، وهو يصرخ بأعلى صوته:

"للمرة المائة أقول لك، لم أظهر لك غضبي الحقيقي بعد. لا أريد أن أؤذيك خوفاً عليك، لكنني سأؤدبك، سأؤدبك أيتها اللعينة!"

ألقاها على السرير بوحشية، خلع سترته وهو يواصل صراخه:

"زمن الدلال والتحكم بالأعصاب قد انتهى. حان وقت استرداد حقوقي. ألا تظنين أنني صبرت عليك طويلاً؟ منذ شهرين ونصف ونحن متزوجان، ولم تقدمين لي شيئاً. أعتقد أن هذا يكفي، ويجب عليك طاعتي وتلبية حقوقي الزوجية."

كانت شهد تتابعه بعينيها المملوءتين بالخوف، وهي تهز رأسها بعنف، ترفض الواقع المرير الذي تعيشه، بينما كانت صرخاتها تنبعث مستنجدة، في محاولة يائسة للتملص من الوضع الذي يزداد بؤساً.

بينما كان يحاول السيطرة على شهد، كانت هي في حالة من الفزع والرفض، تصرخ وتضربه، قائلة:

"ابتعد عني، أنا لا أريدك، ابتعد عني!"

رغم صرخاتها، لم يستمع إليها زياد. كان في حالة صراع داخلي بين رغبته في جعل زواجهما حقيقياً، والغضب العارم الذي كان يحترق في أعماقه. حاولت شهد التملص من قبضته، ولكن قوته كانت تفوق قدرتها بكثير. بعنف هائل، مزق كنزتها، مما جعلها تصرخ أكثر، مهددة بلهجة مليئة بالكراهية:

"سأكرهك أكثر يا زياد! سأكرهك، ولن تحلم بي بعدها إن فعلت ذلك، أقسم لن أسامحك!"

تجمد زياد عند سماعه هذه الكلمات، وعيناه امتلأتا بالظلام. ابتعد عنها ببطء، وعيناه تفيضان بالدموع، بينما شهد انكمشت على نفسها، وغطت جسدها بملاءة السرير، تناظره بخوف عميق. تنهد زياد بيأس وحرقة، وهو يصرخ بألم:

"اللعنة عليكِ وعلى قلبي! اللعنة عليكِ، لأنني لا أستطيع إخراجك من حياتي ومن قلبي أيتها الحقيرة، اللعنة!"

كانت حالته تفوق الوصف، عيناه متوهجتان بحمرة كعيني صقر جريح، ووجهه مشدود، يعكس كل مظاهر الغضب والقهر. انتفض بعنف وفتح الباب بقوة، ليصطدم بنهى التي ارتبكت بمجرد رؤيته. دفعها جانباً بعنف، واتجه نحو غرفته. بينما شهد ظلت تبكي بحرقة، دخلت نهى واقتربت منها، محاولةً مواساتها بكلماتها، لكن شهد لم تكن في حالة تسمح لها بالاقتراب أو استقبال المواساة حتى.

وانتهت تلك الليلة العصيبة، وكل منهم يغرق في بحور آلامه وأحزانه، كل واحد يبكي على مصيره وواقعه وليلاه.

في ذلك المساء، حيث ألقى نور الغروب لمسة خفيفة على الزجاج، جلس ماهر وعادل في مكتب عادل الواسع. كان ماهر قد قصد مكتبه الذي يقبع في شركة زياد فيما كان عادل مسؤول المشروع في شركة زياد، يبادله نظرات مليئة بالتردد.

عادل:

"ما الذي يجعلك هنا ماهر؟

ماهر بابتسامة:

"جئتك بعرض. أريد أن أساعدك في مشروعك."

عادل باستفسار:

"دعنا نتحدث عن الأمور الجادة. لدينا تحديات كبيرة مع المشروع الجديد."

ماهر يقترب أكثر:

"لكن إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، يمكننا استغلال هذه التحديات لصالحنا. سأسهل عليك الطريق، لكن... سيكون هناك ثمن."

عادل:

"ما الذي تقصده؟"

يجيب ماهر بنبرة واثقة:

"زياد، هو العقبة الوحيدة. إذا استطعنا أن نجعله يخسر في هذا المشروع، سيكون الطريق صافياً لنا. علينا التآمر ضده."

عيني عادل تتسع عند سماع الكلمات. هناك شيء جذاب في هذا الاقتراح، ولكنه يعلم أنه مخاطره كبيرة.

عادل بتردد:

"على ماذا تنوي، ولماذا تريد أن تضر خالك، أعلم أنكم على وفاق"

ماهر يشيح ببصره عنه بملل:

"لا شأن لك بهذا الموضوع"

عادل بتوتر:

"وما هي خطتك"

أخرج ماهر من حقيبته ملفاً ضخماً، كان يحتوي على مستندات ومخططات، وقام بوضعه برفق على الطاولة أمام عادل. حرك ماهر يده برشاقة، كمن يفتح باباً سرياً إلى عالم آخر.

"كما تعلم، المشروع الحالي هو محط أنظار الجميع، ولكونه بهذه الأهمية، فإن مساره يجب أن يتغير، أليس كذلك؟" قال ماهر بصوت هادئ، مفعم بثقة خفية.

عادل، الذي بدت عليه علامات القلق، نظر إلى الأوراق بعينين تعكسان تردده. "نعم، لكن ما الذي تقصده بالضبط؟"

ابتسم ماهر ببرود، مستعرضاً محتويات الملف وكأنه يكشف عن كنز دفين. "لدينا فرصة الآن لتحويل المشروع إلى اتجاه آخر. إذا تعاونت معي، يمكنك أن تسهم في توجيه المشروع نحو الفشل، مما سيفتح لنا أفقاً جديداً."

تململ عادل في مقعده، متأملاً عواقب الصفقة. "وماذا سأجني من هذا؟"

"ستحصل على تعويض كبير وسأحل مشاكلك الشخصية. كل ما عليك هو التلاعب بالمشروع بطرق مدروسة، مما سيؤدي إلى عواقب مدمرة."

"وإذا اكتشفوا الأمر؟" سأل عادل، وعيناه تتسعان قلق.

"بفضل خطتنا المحكمة، لن يكون هناك دليل مباشر يثبت تورطك. ولكن يجب أن ننفذها بدقة."

ثم يبدأ ماهر بشرح التفاصيل:

"سنستغل نقاط ضعفه. دعنا نروِّج لبعض المعلومات الخاطئة حول المشروع في السوق. نضع شائعات عن عدم كفاءة الفريق، ونجعل العملاء يشعرون بالقلق. وإذا قمنا بإقناع الموظفين بعدم جدوى العمل في المشروع، سنضمن انهياره."

عادل شبه مقتنع:

"وماذا أفعل؟"

ماهر بثقة:

"أنت تمثل السلطة في الشركة، لذلك يجب أن تبدو كما لو كنت تعمل لصالح زياد حتى اللحظة الأخيرة. لكن في السر، ستساعدني في تنفيذ هذه الخطة."

عادل باستفسار:

"إذا خسرنا، فما هو الثمن؟"

ماهر بأريحية:

"ستخسر منصبك، لكن عندما يتداعى المشروع، سأساعدك في إيجاد فرص جديدة. الأمور ستكون تحت سيطرتنا."

يحرك عادل رأسه بإيجاب وينظر نحو ماهر بقلق خفي فيشيح بنظره نحو النافذة، لديه غاية في تدمير زياد بالطبع، فلا أحد يوافق على هذه الخطة الخبيثة ويشترك بها سوى للوصول إلى غايته.

يعلم ماهر ما يفعله جيداً، فزياد لطالما كان شعلة لا تنطفئ، أذكى أخوته وأنجحهم وأكثرهم طموح على الإطلاق، لطالما تباهى زياد بنجاحه ووصوله إلى أهدافه مما ثبت مكانة كبيرة لدى الجميع وخصوصاً شباب وبنات العائلة، فهو بعيداً عن أنه رجل أعمال ناجح إلا أنه أيضاً صديق لأولاد أشقائه.

يريد أن يكسر ساعديه، ساعده الأيمن الذي هو شركته ومشاريعه وصفقاته ونجاحاته والتي بسببها وبسبب نفوذه يستطيع المحافظة على شهد وأيضاً يبتز عماد جد شهد كي يساعده في بناء ما خسره، وساعده الأيسر شهد، التي سيستطيع أن يخلصها منه ويأخذها له عندما يصبح هو فوق الحميع ويدمر زياد تماماً.

.....

في الساعة الهادئة من المساء، دخل زياد منزله بعد يوم طويل، ليجد نهى جالسة في الصالة تشاهد التلفاز. كانت الأضواء من الشاشة تلقي بظلال رقيقة على وجهها، بينما كان الهواء المحمل بأصوات المدينة يتسلل من النوافذ. ابتسمت له عند دخولهورحبت به ليجلس بجانبها، وهي تنظر إليه بترقب، قبل أن يسأل بصوت هادئ:

"أين شهد؟"

نهى، منغمسة في هدوء يكاد يكون شاعرياً، أجابت:

"هل نسيت؟ اليوم موعد زيارتها في منزل أهلها."

اعتمل التذكير في ذهن زياد، ليقول بعد لحظة من التفكير:

"آه، أجل، لقد نسيت أن اليوم هو الخميس."

تراءى لون الغبطة في عيني نهى، وكأنها تكتشف شيئاً جديداً في عالمها، لتسأله:

"هل أجهز لك العشاء؟"

بهدوء، أجاب زياد:

"لا، شكراً، لست جائعاً"

تومئ نهى بصمت، بينما زياد نهض ليرتدي سترته مرة أخرى قائلاً:

"سأذهب لأجلبها، لن أتأخر."

عادت نهى للتأمل في الشاشة، توقف الزمن لا ينفك عن التراجع. ومع خروج زياد، أسرعت نهى ممسكة بهاتفها مصممة على إجراء مكالمة. ضغطت على الأزرار بسرعة، لكنها تنهدت بضيق عندما وجدت الخط مشغول. لم تنتظر طويلاً قبل أن تتصل برقم هاتف المنزل. وما هي إلا دقائق حتى ردت منى والدة شهد:

"نعم."

نهى:

"مرحبًا سيدة منى، أنا نهى، لو سمحتِ أعطني شهد."

منى ردت بترحاب:

"أهلاً وسهلاً، حسناً دقيقة."

وما هي إلا دقيقة حتى أجابت شهد:

"أهلاً نهى."

نهى بلهجة خافتة، كما لو كانت تتحدث بسرية:

"هل يوجد أحد بجانبك؟"

شهد، بدورها، لم تعر الأمر اهتماماً كبيراً:

"ممم، أجل، ولكن لا بأس، ما الأمر؟"

نهى، وكأنها تتوارى خلف حجاب من الحذر، قالت:

"زياد في طريقه إليك، سيجلبك إلى هنا. لقد طلبت رقمك وأعطاني أنه مشغول، لذلك أردت أن أحذرك قبل أن يصل كي لا تتفاجئي بوجوده دون أن تحسبين حساب."

**شهد شعرت بانقضاض الفكرة، ردت بارتياح:

"آه أجل، شكراً، سأنهي مكالمتي فوراً"

ودعتها نهى وأغلقت الهاتف سريعاً، وابتسامة نصر تنمو على وجهها. تزايدت اتساعات ضحكتها الخفية بينما كان عقلها يسار في ترتيب الأحداث، حيث كانت السيناريوهات تتماشى في تناغم ناعم، وكأنها تعزف لحناً سرمدياً يعد بمفاجآت هادئة، ونجاحات واثقة، سيتحقق بها ما تطمح إليه من لحظات جميلة بشكل حقيقي.

••

بعد نحو ساعة، عاد زياد إلى المنزل ليجد شهد قد توجهت نحو غرفتها بهدوء، دون أن تبدي أي كلمة. تابعها بنظرة باردة تخفي في عمقه حزناً دفيناً، ثم انضم إلى نهى التي كانت تنتظر في غرفة الجلوس، فسلّم عليها لتحييه قائلة:

"تأخرتم."

رد زياد بملل واضح، غير مكترث بما تقوله:

"أجل، اضطررت للجلوس مع والدي شهد قليلاً."

همست نهى بصوت خافت، تحاول كسر جليد الصمت الذي يلف المكان:

"ألن نسهر اليوم سوياً؟"

نظر إليها زياد دون أن يجيب، ثم هز كتفيه بلا مبالاة، مضيفاً:

"كما تشائين."

ابتسمت نهى بصدق وجلست بجانبه، وضعت يده على كتفها واحتضنته، مبتسمة بدفء:

"أشاء أن أبقى في حضنك الدافئ كل العمر."

ابتسم زياد ببساطة، لكن ابتسامته كانت باردة كالعواصف في الشتاء. لاحظ وقوف شهد في الأعلى، تراقبهما بصمت. وبسرعة، كان على وجهها ابتسامة ساخرة، انزلقت بهدوء نحو الأسفل، متوجهة إليهما ببرود:

"أعتذر عن قطع لحظتكما، لكنني جائعة. جهزي العشاء نهى، وبعدها واصلي ما توقفتِ عنه."

انتفضت نهى بنوع من الإحراج، ونظرت إلى شهد قبل أن تنهض مبتسمة حرجة نحو المطبخ. شهد التي كانت تراقب ابتعادها، وجهت نظرها نحو زياد الذي كان ينظر إليها بتململ، ثم ابتسمت له بنوع من اللؤم وسخرت بينما بدأت تقلب في قنوات التلفاز. لكن زياد لم يستطع تحمل هذا الجو، فانسحب بهدوء متجهاً إلى غرفته.

بعد أن أعدت نهى العشاء وتحدثت قليلاً مع شهد، تركتها صاعدة إلى غرفتها لتنضم إلى زياد الذي كان مستلقياً على سريره الواسع. ابتسمت له بنعومة، ثم استلقت بجانبه، ملتصقة بصدره قائلة:

"لقد أصبح المنزل أكثر هدوءاً، صحيح؟"

همهم زياد موافقاً. لتردف نهى بابتسامتها الساحرة:

"شهد لم تعد عدائية. أصبحت تتحدث معي قليلاً."

رد زياد ببرود، وكأن كلماته تخرج من بئر عميق:

"هذا جيد، ثلاثة أشهر كفيلة بأن تجعلكما تتفقان سوياً."

مررت نهى اصبعها على صدره، قائلة:

"هل ستطلقني عندما تحصل على شهد؟"

زياد بهدوء:

"لقد تحدثنا عن ذلك من قبل. أخبرتك أني لن أطلقك حتى لو استقرت حياتي مع شهد."

استمرت نهى في توجيه أسئلتها، قائلة:

"وإن لم تستقر الحياة بينكما، هل ستطلقها؟"

أجابها ببرود، رغم أن نبرته تحمل بعض الحدة:

"لم أسعى وأخسر الكثير لكي أتزوجها وأطلقها بعدها. انسي الأمر تماماً"

همهمت نهى كأنها ترغب في الإبقاء على شعلة الأمل:

"ألا تشعر أننا يجب أن ننجب طفلاً؟"

صمت زياد قليلاً، يفكر بكلماتها. هو يحب الأطفال كثيراً، لكنه لم يكن متأكداً إذا كان الوقت مناسباً الآن. أجابها بهدوء:

"عندما يحين الوقت سننجب. ولا توجعي رأسي بالأسئلة، كفى."

ابتسمت وارتفعت قليلاً نحوه قائلة بخفوت:

"حسناً."

ثم اقتربت شيئاً فشيئاً، تمتلك شفاهه بهدوء، مستمتعين برحلة خاصة بهما. ولكن في أعماق ظهر الهدوء، كان زياد يدرك أن قلبه وعقله لا يزال ينتميان إلى شهد، رغم كل ما يجري حوله.

هبطت شهد إلى الصالة لتقول:

"أنا ذاهبة."

تفاجأت نهى، ووجهت لها سؤالاً يحمل في طياته قلقاً عميقاً:

"إلى أين؟"

تنهدت شهد بوضوح، وكأنها تحمل هموماً أكبر من عمرها، مجيبة:

"سأرى ماهر، لقد طلب رؤيتي لأمر مهم."

أحست نهى بأن قلبها قد توقف للحظة، فوقفت متوجهة نحو شهد، وقلقها يتسلل إلى عينيها:

"هل هذا ضروري؟ أخشى أن يعود زياد ولا يجدك هنا."

أجابت شهد ببرود وكأن ملامحها أصبحت جداراً صلباً لا يمكن اختراقه:

"قولي له إنني ذاهبة للتسوق."

تململ التوتر داخل نهى، فغاصت في أفكارها قائلة بقلق:

"ألا تستطيعان أن تتحدثا عبر الهاتف فقط؟"

تنهدت شهد، وضيقها بدأ يظهر على ملامح وجهها:

"ما بكِ نهى؟ ما كل هذه الأسئلة؟ لا تنسي أنني أسعى وراء طلاقي من زياد، وماهر هو الوحيد الذي يمكنه مساعدتي. وأنت ستقومين بالتغطية لي."

نفخت خديها، لتحاول تجميع أفكارها بينما تدرس موقفها:

"ولكنني أقلق من غضب زياد. ماذا إذا اكتشف ما نفعل من وراء ظهره؟"

ابتسمت شهد بسخرية، وتلك الابتسامة كانت كالسيف الذي يقطع الشكوك:

"لا تقلقي، لن يكتشف شيء. حالما يأتي أخبريه أنني أتسوق، وقومي بإلهائه. أنت تفلحين بهذه الأمور."

ألقت شهد نظرة سخرية عليها قبل أن تخرج من المنزل كأنها تعلن بداية فصل جديد في حياتها. تبعت العواصف التي اجتاحت قلب نهى، فلقد تفاجأت تماماً من تحول شهد الجذري. كانت قبل أيام لطيفة معها، والآن تبدو كسيدة تتحكم بمصيرها. لكن نهى كانت قد توصلت إلى قرارها، فهي لن تسمح لنفسها بالانغماس في مشاعر القلق حول مستقبل شهد.

ابتسمت نهى بخفة لنفسها وهي تفكر:

"لا بأس، سأحتملها حتى تخرج من حياة زياد، وبعدها ستصبح الساحة لي وحدي. سأكون أنا التي تملك زمام الأمور."

ركد إلى قلبها هدوء رغم ما يحدث، وقد اعتلت ملامحها ابتسامة تتسم بالعزم الأخير.

•••

وقفت شهد بسيارتها أمام المقهى المعتاد، ذلك المكان الذي شهد لقاءاتها المتكررة مع ماهر. كانت قد قررت النزول والتوجه إلى الداخل كعادتها، لكن لحظتها ظهر ماهر فجأة بجوارها وركب في المقعد المجاور. ابتسم لها ابتسامة غامضة وهو يقول:

"كيف حالك اليوم؟"

تفاجأت شهد بوجوده غير المتوقع، فأجابت مترددة:

"بخير... لكن لماذا ركبت؟ ألن ندخل إلى المقهى؟"

بدا على ماهر شيء من التوتر الذي حاول إخفاءه وهو يرد بهدوء متكلف:

"لا، لن ندخل. سنذهب إلى بيتي بدلاً من ذلك. هنا، في المقهى قد يرانا أحدهم، ولا أستبعد أن يكون زياد ممن يتتبعون تحركاتنا. الأفضل أن نكون بعيدين عن الأنظار."

تملك شهد شعور بالخوف والقلق، قالت بصوت خافت يشوبه التوتر:

"لا... لا أستطيع الذهاب إلى منزلك. مهما كانت الظروف، أنا امرأة متزوجة، ولن أسمح أن أضع نفسي في موقف كهذا."

ضحك ماهر ضحكة ساخرة وقال بنبرة تحمل شيئاً من التهكم:

"وهل طلبت منك إقامة علاقة محرمة؟ ما قصدته ببساطة هو أن نختفي عن الأنظار. بالإضافة إلى ذلك، هناك أمور مهمة يجب أن أخبرك بها. أليس هدفك الأساسي التخلص من زياد؟"

توقفت شهد قليلاً وهي تتأمل كلماته، الغضب والارتباك يتصارعان داخلها. لم تكن واثقة مما ينبغي عليها فعله. فهي تخشى من رد فعل زياد إذا اكتشف أنها ما زالت تلتقي بماهر، وتخشى في الوقت ذاته أن ترافق ماهر إلى منزله. أخيراً قررت الحل الوسط فقالت:

"حسناً... سأقود إلى مكان منعزل نوعاً ما ونتحدث في السيارة. لا داعي للذهاب إلى منزلك، وهكذا لن يرانا أحد."

ظهر الضيق في عيني ماهر، لكنه اكتفى بالصمت وأومأ برأسه. أدارت شهد محرك السيارة وقادت إلى زاوية هادئة بعيداً عن الأنظار، حيث أوقفت السيارة وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تنظر إليه وتقول:

"حسناً، ما هو الأمر؟"

نظر إليها ماهر نظرة غريبة، كانت عيناه تحملان بقايا من مشاعر مكبوتة لم يجرؤ على البوح بها. تردد للحظة وكأنه يحارب نفسه قبل أن يقول بصوت منخفض:

"أنتِ تريدين الطلاق من زياد، أليس كذلك؟"

أومأت شهد بصمت، ليكمل ماهر حديثه:

"إذن، هناك شيء بسيط أحتاجه منكِ لأتمكن من الإيقاع به، وبهذا تحققين مرادك وتتطلقين منه."

شعرت شهد بالقلق يتسلل إلى قلبها وهي تسأله بحذر:

"وما هو هذا الشيء الذي تريده مني؟"

رد ماهر ببرود ظاهر:

"ملف... ملف يخص عمل زياد. أنا واثق أنه يحتفظ به في منزله."

رفعت شهد حاجبيها بدهشة وهي تستفسر:

"ملف؟! أي نوع من الملفات؟ وماذا تنوي فعله به؟"

تنهد ماهر بعمق قبل أن يجيب بصوت مليء بالجدية:

"اسمعيني جيداً يا شهد، سأكون صريحاً معك. زياد يعمل على مشروع ضخم في الوقت الحالي، وإن فشل هذا المشروع سيتكبد خسائر فادحة. أحتاج مساعدتك لتدمير هذا المشروع. إذا جلبتِ لي هذا الملف، سيمكنني تحطيم إمبراطوريته."

شعرت شهد بوخز في قلبها، فهي لم تكن تنوي إلحاق الأذى بزياد بهذا الشكل. كل ما تريده هو التخلص منه دون أن تكون سبباً في دمار حياته. فقالت بنبرة تحمل الكثير من التردد:

"لا أستطيع خيانته وإيذاءه بهذه الطريقة. لا أريد أن أؤذيه، أريد فقط الطلاق منه. أرجوك، افهمني."

ابتسم ماهر ابتسامة باردة، وقال بلهجة محايدة:

"مهما فعلنا، لن يتضرر زياد كثيراً. سنقوم بإضعافه قليلاً، سيخبو نجمه لبعض الوقت، لكن نفوذه سيبقى كما هو. عليكِ أن تدركي أن سيطرته عليك تأتي من سلطته وقوته."

شعرت شهد بجفاف في حلقها وهي تبتلع ريقها بصعوبة. بقيت صامتة لفترة، لا تعرف كيف ترد عليه، بينما تابع ماهر كلامه بنبرة حازمة:

"مهما كان، زياد سيبقى خالي. لكنني أريد أن أحاسبه على ما فعله بنا. عندما ننفذ ما نخطط له، ستتخلصين منه، ونعيش أنا وأنتِ سوياً، بينما هو سيعود إلى حياته مع تلك المرأة التي تدعى نهى. وسنستمتع نحن بحياتنا الجديدة."

نظرت إليه شهد بعمق، كان في عينيها توتر ممزوج بالحزن. بعد صمت طويل، أجابت:

"أنا لست من يخون الثقة يا ماهر. نعم، أنا غاضبة من زياد، وأشعر بالكثير من المرارة تجاهه، لكنني لا أستطيع أن أخونه بهذه الطريقة. صحيح أنني أحياناً أتصرف بجنون، وربما أبدو حمقاء، لكن خيانة كهذه... لا. انسى الأمر."

غضب ماهر وأخذ يكز على أسنانه، وقال بنبرة حادة:

"ماذا بكِ؟ أقول لكِ، لن يتضرر كثيراً! سنحطم هذا المشروع فقط، وسنخرج منتصرين نحن الاثنين."

شعرت شهد بالغضب يتصاعد بداخلها. أدارت محرك السيارة بسرعة وهي تقول بغضب مكتوم:

"سأعيدك إلى حيث قابلتك. إذا لم يكن لديك طريقة أخرى غير هذه، فسلاماً عليك. انسى الأمر ودعني وشأني، ولا تحاول الاتصال بي بعد الآن."

ما إن أدارت المحرك حتى لاحظ ماهر غضبها، فوضع يده بلطف على يدها، محاولاً تهدئتها، وقال بصوت هادئ يحمل نبرة من التنازل:

"حسناً حسناً... اهدئي. لن نؤذيه في عمله، كما تشائين."

توقفت شهد عن القيادة، وأطفأت المحرك بينما أخذت نفساً عميقاً لتنفس عن ضيقها. أشاحت بوجهها عنه، محاولة استجماع أفكارها. ابتسم ماهر لها بابتسامة تحمل شيئاً من الحسرة، وقال:

"لطالما كنت أحب عصبيتك يا شهد. ولكن... هل تتذكرين كيف كنت أسيطر على غضبك دائماً؟"

نظرت إليه شهد ببرود مشوب بالحزن الذي ارتسم في عينيها، وكأنها تتأمل ذكريات بعيدة لم تعد تريد استرجاعها. ثم غيرت مجرى الحديث لتقول بصوت متهدج:

"هل لديك خطة أخرى؟"

ماهر، وقد بدا عليه شيء من الإحراج، رد بصدق:

"في الواقع، لا. ليس لدي حالياً أي خطة بديلة، لكن لا تقلقي، سنجد حلاً."

أومأت شهد برأسها وكأنها تعطيه مهلة، ثم قالت:

"لديك يومين لتجد طريقة أخرى، سأهاتفك حينها لتخبرني بالتفاصيل."

ابتسم ماهر بسخرية خفيفة وقال:

"ألا تعتبرين هذا أيضاً نوعاً من الخيانة؟"

نظرت له شهد بحدة، وكأنها تقاوم استفزازه، وردت بنبرة ثابتة:

"لا، ما أسعى إليه هو الخلاص، لكن ليس بطرق ملتوية مثلك. أنا لا أخونه، ولا أخون حرمة منزله. لكنني لن أقبل بالعيش مع رجل أخذني غصباً و تجاهلني عمداً وجرح كرامتي كامرأة."

شعر ماهر بوقع كلماتها القاسية عليه، وبدا أنه لا يجد ما يقوله في هذا الموقف. سكتت للحظة، ثم سألته بانفعال لم تستطع إخفاءه:

"ما الذي حدث لك؟ لم تكن هكذا من قبل. لقد تغيرت كثيراً."

ابتسم بحزن وكأنه يتحدث عن ذاته التي لم يعد يعرفها، وأجابها بنبرة متعبة:

"لم أتغير وحدي يا شهد... بل أنت أيضاً."

نظرت أمامها وكأنها تبحث عن مخرج من هذا الوضع، ثم قالت بضيق:

"سأعيدك الآن إلى حيث قابلتك. لا يمكنني التأخر أكثر."

ساد الصمت بينهما طوال الطريق، كان كل منهما غارقاً في أفكاره ومشاعره المتضاربة، حتى وصلا إلى المكان الذي التقيا فيه في البداية. توقفت السيارة، ونظر كلاهما إلى الأمام بصمت، دون أن يتبادلا أي كلمة أخرى. كانت مشاعرهما أشبه بعاصفة هوجاء، تختبئ تحت قناع من الهدوء الظاهري.

••

عادت شهد إلى المنزل متثاقلة الخطى، تجر خلفها ظلال تعبها وخيبة أملها. ما إن فتحت باب الصالة حتى وقع نظرها على زياد ونهى الجالسين بصمتٍ يثير الفضول. رفعت نهى عينيها إلى شهد وابتسمت بابتسامة متوترة حاولت أن تجعلها دافئة، ولكن تلك الابتسامة لم تلامس إلا سطح قلقها المستتر. قالت بلهجة حريصة:

"أهلاً شهد، هل لم يعجبكِ شيء في السوق؟"

توقفت شهد لبرهة وكأنها تتفحص المشهد أمامها قبل أن تجيب ببرود كاد يجمد الهواء بينهما:

"لا، كنت قد رأيت سترة على الإنترنت، ذهبت لشرائها ولكن نفدت الكمية."

أومأت برأسها وكأنها تفهمت الموقف. لكن زياد الذي كان يراقب الحوار بصمت ثقيل لم يستطع أن يمنع نفسه من التدخل، فقال بنبرة هادئة تخفي تساؤلاته:

"لماذا لم تخبريني قبل أن تخرجي؟"

شهد اكتفت بهز كتفيها وكأنما تتخلص من ثقل السؤال بلامبالاة واضحة:

"لم أنوِ أن أتأخر، أردت الذهاب والعودة فوراً لأنني أعلم ماذا سأشتري، ولكن لسوء حظي، لم أجد طلبي."

اكتفى زياد بإيماءة صامتة تعكس مزيجاً من الاستياء والتفكير العميق، ثم نهض دون أن يضيف كلمة، متجهاً نحو غرفته بخطواتٍ رتيبة، وكأن كل خطوة تحمل على عاتقها ثقلاً من الأفكار غير المعلنة. ما إن اختفى زياد عن الأنظار حتى التفتت شهد لنهى، همست بصوتٍ خافت يحاول ألا يتجاوز حدود الهمس:

"هل شعر بشيء؟"

ردت نهى بنفس الهمس، لكن بنبرة أكثر توتراً:

"لا، ولكنه انزعج من تصرفكِ، لم يعلق على أي شيء."

أومأت شهد بصمت، ثم أضافت نهى وهي تلمح القلق في عيني شهد:

"ماذا حدث؟ ماذا قال لكِ ماهر؟"

نطقت شهد بملٍ وكأنما تحاول أن تتخلص من هذا الحديث المرهق:

"لا شيء مهم، سأذهب لأرتاح."

ثم دون أن تنتظر رداً استدارت وصعدت إلى غرفتها بخطوات متثاقلة، تاركةً نهى وحيدة في الصالة، جلست نهى تحدق في الفراغ، عقلها مثقل بالشرود والتساؤلات، وكأنها تغرق في دوامة من الأفكار المتضاربة. لكن ذلك الشرود لم يدم طويلاً، فقد قطعه صوت رنين هاتفها المفاجئ، نظرت إلى الشاشة لترى رقماً مجهولاً. عقدت حاجبيها وأجابت بتردد:

"نعم؟"

جاءها صوت من الطرف الآخر، صوت خافت لكنه يحمل في طياته برود اً غريباً:

"مدام نهى؟"

ازدادت دهشة نهى، و ردت بتعجب يشوبه الحذر:

"نعم، من معي؟"

رد الصوت ببرودٍ لا يترك مجالاً للتكهنات:

"أنا ماهر، ابن شقيقة زياد."

تجمدت نهى في مكانها للحظة، اتسعت عيناها بصدمةٍ سريعة قبل أن تستعيد توازنها وتعيد ضبط ملامحها. لكنها في داخلها كانت تدرك تماماً أن هذا الاتصال سيجلب معه شيئاً لن يُمحى من ذاكرتها بسهولة. الأفكار بدأت تضرب عقلها كأمواج البحر العاتية، لتتركها في دوامة من الحيرة والتساؤل.

بخطوات هادئة، خرجت على أطراف أصابعها من الغرفة، متجهة نحو مكتب البيت بحذر شديد. كان قلبها ينبض بعنف، مفعماً بالخوف والتوتر. دخلت غرفة المكتب ببطء، مغلقة الباب خلفها بحذر بالغ، وكأنها تخشى أن يوقظ أدنى صوت من يقظة في الأرجاء. توجهت نحو المكتب، عينيها تتنقلان بين الأدراج المتناثرة، تبحث عن الملف الذي شغل بالها طيلة الأيام الماضية. طال بحثها، ولكن الملف لم يظهر، حتى وصلت إلى درج واحد، كان مقفلاً بإحكام.

تنفست بعمق، مشيرة إلى الاستياء من تلك العقبة الصغيرة التي بدت وكأنها تزيد من قلقها. عادت أدراجها نحو الداخل بحذر شديد، وتوجهت نحو زياد الذي كان غارقاً في سبات عميق. اقتربت منه ببطء، قلبها يدق بشدة، وأخذت المفاتيح من جانبه بخفة، وكأنها تتجنب إزعاج حتى أحلامه.

عادت إلى غرفة المكتب، فتحت الدرج المقفل بنجاح، وعثرّت على الملف الذي تبحث عنه. شعرت بارتياح خفيف عندما تصفحت أوراقه للتأكد من محتواه، ثم أغلقت الدرج وأعادت المفاتيح إلى مكانها بدقة. خرجت من الغرفة، متجهة نحو الصالة حيث جلست بترقب، انتظاراً لرنة الهاتف التي قد تكون أملها الأخير في تلك اللحظة العصبية. كان توترها بالغاً، وعقلها يشغله قلق عميق، وهي تترقب بفارغ الصبر اتصال ماهر.

**

في قلب الليل، عندما أشارت الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل، خرجت نهى من المنزل بخطوات حذرة وكأنها تتسلل عبر نفق مظلم. أغلقت الباب خلفها برفق، حاملة بين يديها الملف المطلوب، تنبض كل صفحة فيه بأسرارها المخفية. أخذت نفساً عميقاً، وخرجت إلى الفضاء الخارجي لتجد سيارةً متوقفة أمام باب منزلها. اقتربت بهدوء، وإذ بماهر يبتسم بمكر قائلاً:

"اصعدي."

ردت نهى بتوتر:

"لا أستطيع، فقد يستيقظ زياد ويكتشف غيابي."

ماهر، ببرود غير مبالٍ، قال:

"لا تقلقي، سنتحدث في السيارة، لن نذهب إلى أي مكان."

أجابت بخفوت وقلق:

"حسناً."

صعدت إلى السيارة بجانب ماهر وقلبها ينبض بعنف، فهي لأول مرة تجرؤ على القيام بشيء كهذا. لم تسبق لها أن صعدت في سيارة مع شاب سوى زياد، وكانت هذه التجربة من الأمور غير المألوفة في حياتها، باستثناء ما كان قد حدث بعد زواجها. لقد عاشت نهى في ظلال من الخوف والقمع، حيث كانت تتعرض للهيمنة من قبل أخويها وزوجاتهم، معاملةً كخادمة وبدون أي صوت أو شخصية تُذكر. بعد وفاة والديها، ازداد وضعها سوءاً، لتجد نفسها أسيرة لعالم من اللامبالاة والقسوة. حتى بعد زواجها من زياد، لم تخرج من قبضة الظلم، بل تجد نفسها في سعي مضنٍ للبحث عن قيمة وحقوق تفتقدها، ولكن للأسف بطرق خاطئة.

جلست بجانب ماهر في صمت مشوب بالقلق، بينما كان هو يراقبها بمكر، قائلاً بسخرية:

"مابك؟ لن آكلك."

نهى، بلهجة متوترة:

"أرجوك، تحدث بسرعة قبل أن يشعر أحد بغيابي. إذا علم زياد سيطلقني وسأخسره للأبد."

ابتسم ماهر ابتسامة ماكرة قائلاً:

"لا، لن يعلم. اطمئني. فقط ابقي هادئة وساعديني فيما أريده."

قدمت له الملف قائلة:

"حسناً، هذا هو الملف الذي طلبته."

استلمه منها ماهر بارتياح، قائلاً:

"جيد. الآن، اسمعي ما يجب عليك فعله."

أومأت برأسها بصمت، فأضاف ماهر:

"بالنسبة للملف، فقد أصبح معي وسأنفذ ما أريد بمساعدة شخص آخر، مما سيتسبب في خسارة زياد للمشروع. هذا سيكون انتقامي منه لما فعله بي. أما بالنسبة لشهد، فإني لم آخذ حقها منه بعد."

نهى بعدم فهم:

"لم أفهم."

ماهر، بنفاذ صبر:

"ألا تريدين أن تزيحي شهد عن طريقك وتجعلي زياد يطلقها بأسرع وقت؟"

نهى، بهدوء وتحفظ:

"أنا أعلم أن شهد لا تريده، لذلك أسعى لطلاقها منه كي يبقى لي وحدي. لو لم يكن الأمر كذلك، صدقني لما أقدمت على أي خطوة. أنا لم أؤذِ أحداً في حياتي، ولا أنوي الشر لشهد. بالعكس، أريدها أن تكون سعيدة وتعيش مع من تحب، لأنني أنا الدخيلة، وليست هي."

تنهد ماهر بضيق، قائلاً:

"اسمعيني جيداً. ما أفعله بزياد الآن لا يجعله يطلق شهد. أما ما سيحدث لاحقاً، فسيجعل زياد يتخلص منها فوراً، ولن يحتمل حتى سماع اسمها."

نهى، بقلق مضطرب:

"حسناً، كيف ذلك؟"

ماهر بمكر:

"اسمعي جيداً."

بينما كانت نهى تستمع بتركيز، وبنفس قلق متسارع، كان ماهر يخطط ليس فقط لإنقاذ شهد بل لتدمير قلب زياد بشكل مدمر، من دون أدنى اعتبار لمشاعر الآخرين أو عواقب أفعاله.

....

طرقات خفيفة رقيقة كهمس الفراشات على باب غرفتها، أيقظت شهد من شرودها الثقيل. همست بصوتٍ بالكاد يُسمع من بين ثنايا حزنها:

"ادخل".

انفتح الباب ببطءٍ مُتردد، ليتسلل زياد إلى الغرفة كطيفٍ يخشى إحداث ضجيج. بدت خطواته مترددة، تنقل ثقل قلقه وهو يشق طريقه نحوها. جلس بجانبها على حافة الفراش الذي بدا فسيحاً كمدى البعد الذي فرضته بينهما، وقال بصوتٍ خافت:

"شهد... حبيبتي، كيف حالكِ؟"

رفعت شهد عينيها نحو وجهه، وكأنّها تجبر روحاً مرهقة على مواجهة مصدر ألمها. كانت عيونها لامعةً بالدموع المُكبوتة، تُخبره بقصص من الحزن لم يستطع قراءتها من قبل. "بخير" أجابت بكلمةٍ واحدةٍ باهتة، كأنّها تُلقي بها في وجهه لتُنهي هذا الحوار المُؤلم قبل أن يبدأ.

تنهد زياد بثقل، تنهد رجلٍ يحمل على كتفيه هموم العالم أجمع.

"هل أنتِ على ما يُرام حقاً؟" سألها وهو يُميل برأسه قليلاً، وكأنه يحاول التقاط ألمها الخفيّ من بين كلماتها: "أشعر أنكِ لستِ بخير، أنتِ على غير عادتكِ".

أبعدت شهد نفسها عنه قليلاً، وكأنّها تبتعد عن مصدر حرارة لا تُطاق. "لا، أنا بخير، الحمد لله" كررت نفس الكلمة، لكن نبرة صوتها المُتعبة ونظراتها المُتجنبة كانتا تفضحان كذبها الذي لم يعد يُقنع أحداً، ولا حتى نفسها.

أومأ زياد برأسه بصمت، وقد أدرك أنّ محاولاته لاختراق جدار صمتها تصطدم بإصرارها على البقاء سجينة لأحزانها. ظلّ الصمت يُخيم على الغرفة لبضع دقائق، صمتٌ خانقٌ كغرفةٍ مُغلقة النوافذ، لا يقطعه سوى دقات قلبيهما المُتعَبة. كان زياد يشعر بضياعٍ رهيب، فهي إلى الآن لم تُعطِه ولو فرصةً صغيرةً لكي يقترب منها، لكي يُخبرها كم يتألم لرؤيتها على هذه الحالة، لكي يُطفئ نيران الندم التي تُلتهم قلبه.

بترددٍ كبير، كمن يُقدم على خطوةٍ قد تُكلّفه الكثير، مدّ يده نحو يدها التي كانت باردةً كالثلج، فاستشعر نعومتها تحت لمسته الخجولة، وكأنّها زهرة هشة يخشى أن تذبل بين يديه:

"أشعر أن العالم أسود وقاتم ومُعتم وأنتِ بعيدة عني بهذا الشكل" قال بصوتٍ مُرهق، وكأنّه يُلقي بثقل ألمه على مسامعها. "إنّك لم تعطيني ولا حتى فرصة للتقرب منكِ، منذ أن تزوجنا ونحن في عراكٍ دائم، ألم تملين من هذا الوضع؟"

كانت كلماته كافية لإنهيار السد الذي أقامته شهد حول قلبها. نظرت إليه بعينين فاضتا بالدموع أخيراً، دموعاً كانت كفيلةً بإغراق قلب زياد بمزيجٍ من الحزن والندم. انهارت دفاعاتها أمام صدق مشاعره، وانهمرت دموعها بغزارةٍ على خديها، كأمطارٍ عاصفةٍ تهطل بعد جفافٍ طويل. أطلقت شهقةً مُوجعةً من أعماق قلبها، وارتمت بين ذراعيه كطفلةٍ تبحث عن الأمان في حضن والدها.

ضمّها زياد إلى صدره بقوةٍ، كمن عثر على كنزهِ الضائع بعد طول بحث. كان قلبه يتمزق لرؤيتها على هذه الحالة، هي تعرف جيداً أنّه هو المُلام على حزنها، وأنّه يستحق منها فرصةً أخرى لإصلاح ما أفسده، ولكنّها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تُكمل حياتها معه وتوجد امرأةٌ أخرى في حياته، امرأةٌ تمثل خطأه الذي لا يُغتفر.

تستحقُّ قلباً ينبضُ لأجلها وحدها، وحياةً هادئةً تُنسيها عذاباتِ الماضي، لكنَّ جراحَ قلبها غائرةٌ، وصرخاتُ روحها مكتومةٌ، لم تَعُدْ تحتمل وطأةَ هذا العبءِ الثقيل. الانفصالُ بدا كطريقٍ مظلمٍ، لكنَّهُ الطريقُ الوحيدُ نحوَ شمسِ حريتها.

تُقرُّ في قرارةِ نفسها بإعجابها بزياد، فهو صخرةٌ صمدتْ أمام عاصفةِ ألمها، ورغم كلِّ ما جرى، لم يتوانَ لحظةً عن احتضانِ ضعفها. لكنَّها تُدركُ أنَّ الحبَّ وحده لا يكفي لبناءِ حياةٍ زوجيةٍ مستقرة، فوجود نُهى سيظلُّ حائلاً بينهما، كظلٍّ ثقيلٍ يُخيِّمُ على قلبيهما.

تُدركُ أنَّها أمامَ رجلٍ يُجسِّدُ المروءةَ والرجولة، رجلٌ يتمتَّعُ بقلبٍ حنونٍ وعقلٍ راجح، أيقنتْ أنَّها تتشاركُ حياتها مع رجلٍ بكلِّ ما تحملهُ الكلمةُ من معنى، الأمرُ الذي يُفاقمُ حزنها على فقدانه، ويجعلُ قرارها أكثرَ صعوبة. لا تستطيعُ أن تُطالبهُ بالتخلّي عن نُهى، كما لا تطيقُ العيشَ في ظلِّ زوجيةٍ ثلاثية.

تتمنّى لو أنَّ الزمنَ يعودُ إلى الوراء، لو أنَّ نُهى لم تدخلْ حياتهم، لربّما استطاعتْ أن تُكملَ حياتها مع زياد بسعادةٍ وهناء، لكنَّها تُدركُ أنَّ التمنّي مجردُ همسٍ في أعماقِ القلب، لا يُغيّرُ من واقعِ الأمورِ شيئاً.

"شهد... روحي أنتِ... أموت من أجلكِ أنا... فقط لا تبكين يا روحي"، همس وهو يربّت على ظهرها بحنانٍ مُحاولاً تهدئتها، ولكنّ كلماته كانت كفيلةً بإشعال بركان أحزانها المُتأجّج.

ومع كلماته التي لامست جرحها كلمسةِ نار على جلدٍ مجروح، ازدادت شهد انكساراً. تضاعفت شهقاتها، وانهمرت دموعها بغزارةٍ أكبر، وكأنّها تُعبّر عن سنواتٍ من الألم المُكبوت. مرّر زياد أنامله بين خصلات شعرها بحنوٍّ بالغ، همس وهو يُقبّل رأسها بخفة:

"أموت لأجل هذه العينين التي تهبط منها هذهِ اللآلئ... توقفي يا روحي، فقلبي يتمزق من بكائكِ هذا".

كأنّ كلماته كانت تنحت في قلبها جرحاً جديداً مع كل حرف. كلما حاول تهدئتها بكلماتٍ رقيقة، كلما زاد نحيبها وتضاعف ألمها. شعر زياد بالعجز أمام انهيارها، فقال بصوتٍ مُتوسّل:

"بماذا تأمرين يا أميرتي؟ قولي وسيكون زياد طوع أمركِ. ماذا أفعل لكِ كي تتوقفي عن البكاء والحزن، يا نبض قلبي أنتِ؟"

دفنت شهد وجهها في صدره العريض، وكأنّها تبحث عن ملاذٍ آمنٍ من عاصفة أحزانها التي لا تُبقي ولا تذر. كان جسدها يهتزّ من شدة البكاء، ينقل إليهِ أمواجاً من الحزن والأسى. ظلّ زياد صامتاً، عاقداً حاجبيه في حزنٍ دفين على حالها، يداعب ظهرها بحنوٍّ كمن يُهدّئ طفلةً مُفزوعة.

بعد قليل من الوقت، هدأت نوبة بكاءها قليلاً، ولم يعد يسمع منها سوى شهقاتٍ خافتة متقطعة، كأنّها بقايا عاصفةٍ هدأت فجأة. ارتسمت ابتسامةٌ باهتة على وجه زياد، ابتسامة رجلٍ يُحاول التشبّث بأضعف خيط للأمل. حاول النظر إلى وجهها المُدفون في صدره، وقال بصوتٍ منخفض:

"هل هدأتِ مليكتي؟"

أومأت شهد برأسها بصمت، وكأنّها تخشى أن يفهم من كلامها أكثر مما ينبغي.

اتسعت ابتسامة زياد، وقال وهو يُربّت على ذراعها بحنان:

"هل تريدين أن أفعل شيئاً لكِ يا روحي؟"

رفعت شهد رأسها ونظرت إليه بعينين مُحمّرتين من البكاء، صوتها مبحوحٌ يكاد يكون همساً:

"أريد أن أنام... نم بجانبي".

وكأنّها ضغطت على مفتاح سعادة لم يدرك زياد أنه ما زال يعمل، فقال بفرحةٍ عاصفة:

"وإن كان البكاء سيدعوكِ تطلبين مني النوم بجانبكِ، فسأدعكِ تبكين كثيراً.. لكن من الفرح يا نور عيني".

أرغمتها جملته على الابتسام، ابتسامة باهتة كشروق شمس بعد عاصفةٍ هوجاء. تمدّدت على الفراش وتمدّد بجانبها بحذرٍ كمن يخشى أن يُوقظ حلماً جميلاً. ضمّها بين ذراعيه بحنان، يُحيطها بدفء وحماية افتقدتهما بين جدران هذه الغرفة لفترةٍ طويلة. كان يمسدّ على شعرها بنعومةٍ وهي تُدفن وجهها في رقبته، يستشعر أنفاسها التي أصبحت أكثر هدوءاً، بينما قلبه يكاد يتوقّف من فرط السعادة وهو يشعر بقربها منه بعد كلّ هذا البُعد.

"لا جعل لكِ يوماً بعيداً عن حضني يا آسرة قلبي"، همس وهو يُطبع قبلةً حنونة على شعرها.

شعر زياد بابتسامتها تُلامس رقبته كلمسة فراشة، فابتسم هو بدوره وسّعَد لشعوره بأنّها بدأت تستعيد بعضاً من سلامها الداخلي. شدّد على احتضانها، وكأنه يُريد أن يُخبرها دون كلماتٍ أنّه سيبقى بجانبها مهما حدث، وأنّه لن يسمح لأيّ شيءٍ أن يُبعدها عنه مُجدداً. ولأول مرةٍ منذ وقوعه في حبّها، ينام زياد هذه النومة الهانئة، نومة رجلٍ عثر على ملاذه الأخير بين أحضان المرأة التي أحبّها بصدق.

بينما في الخارج، كانت نُهى تقف خلف الباب مُستندةً إلى الجدار، دموعها تنهمر على خديها بصمت. كانت تستمع إلى حديث زياد مع شهد، إلى كلماتهِ الحنونة التي كانت كالسهام تخترق قلبها المُنهك. لم تستطع تماسك نفسها وهي تسمع صوتهُ وهو يُهدّئ من روعاتها، وهو يعدها بالبقاء إلى جانبها. شعرت بوخزةٍ في قلبها، وخز ألمٍ لا يُحتمل، وكأنّ يداً ما قد مزّقت روحها إلى نصفين. في داخلها مخاوفُ كبيرة تُلقي بظلالها الثقيلة على قلبها، خصوصاً وأنّ شهد اليوم بدت مُختلفةً مع زياد، وكأنّها قررت أن تُقاتل من أجل الحفاظ على زوجها. وهذا ما أثار قلق نُهى ورعبها، فهي تُدرك جيداً مدى قوة الحب الذي يربط زياد بشهد. لذلك، قررت أنّ عليها التصرّف بأسرع وقت، وأن تُنفّذ ما طلبهُ منها ماهر فوراً، قبل فوات الأوان.

عصف الغضب بعقل زياد وحوّل هدوءَه إلى فوضى عارمة. انقلب المكتب رأساً على عقب، وتطايرت الأوراق وتناثرت الملفات كأوراق الخريف تحت عاصفة هوجاء. كان يبحث بهستيرية عن ملفٍ محدد، ملفٍ يحمل بين طياته مصير مشروعه الجديد، لكنه اختفى وكأن الأرض قد ابتلعته.

"نهى!" صرخ زياد بأعلى صوته، صوتاً اعتصر قلب نهى التي هرعت إلى المكتب وهي تحاول الحفاظ على ثباتها الذي ينهار مع كل خطوة. كان صدرها يعلو ويهبط كعصفور محاصر داخل قفصه الصدري، لكنها حاولت التماسك وألقت التحية بصوت مرتجف:

"ما الأمر يا زياد؟"

التفت زياد نحوها، ونظراته كالسِهام الملتهبة تخترق دفاعاتها الهشّة. "هل دخلتِ إلى مكتبي من قبل؟" سألها بصوت حادٍ كأنه يوجه إليها تهمة خطيرة.

ارتبكت نهى للحظة تحت حدة نظراته، لكنها أجابت بسرعة وهي تحاول إخفاء ارتباكها: "لا، لم أدخل نهائياً، صدقني".

لم يجبها زياد، بل ظلّ ينظر إليها بشكٍ واضح، مما زاد من توترها ودفعها لسؤاله: "لماذا تسأل؟ ما الذي حدث؟"

"يوجد ملف كان في هذا الدرج المقفل، أين اختفى؟" قال زياد وهو يشير إلى درج مكتبه الذي بدا مبعثراً هو الآخر. "لا يوجد سواي أنا وأنت وشهد في المنزل".

ابتلعت نهى ريقها بصعوبة، وشعرت بجفاف مفاجئ في حلقها، وقالت وهي تحاول الظهور بمظهر البريئة: "اسأل شهد، ربما هي أخذته، ربما احتاجته لأمرٍ ما".

لم يجبها زياد، بل صرخ بأعلى صوته منادياً شهد التي دخلت الغرفة مسرعة وهي تبدو على ملامحها علامات القلق والاستغراب:

"ما بك يا زياد؟ لماذا تصرخ؟"

التفت زياد نحوها، ونظراته الحادة لم تفارقها:

"هل دخلتِ إلى غرفة مكتبي؟"

أجابت شهد بنفي قاطع، وهي تستشعر أنها على وشك الدخول في مشادة كلامية لا تُحمد عقباها:

"لا، ولماذا أدخل إلى مكتبك؟ ليس لي عمل هنا".

صمت زياد لبرهة، وأغمض عينيه بقوة وهو يحاول السيطرة على غضبه الذي كاد أن يفلت منه. "يوجد ملف ضائع، لذلك هو يسأل"، قالت نهى وهي تحاول تهدئة الأجواء.

نظرت شهد إلى زياد ثم إلى نهى، وقالت بحيرة:

"لم آخذ أيّ ملف، ولم أدخل إلى هنا أصلاً".

"واحدة منكما دخلت إلى هنا وأخذت الملف"، قال زياد بصوت حازم. "لا يوجد تفسير آخر. من أخذته فلتخبرني الحقيقة ولن أفعل لها شيئاً، فقط أريد أن أعلم أين اختفى".

ساد الصمت في الغرفة مجدداً، صمت ثقيل يحمل في طياته الكثير من التوتر والشك. ظلت نهى وشهد صامتتين، تتبادلان النظرات المرتبكة، بينما بقي زياد يراقبهما بعينين تبحثان عن إجابة شافية لم يجدها.

"فلتنطقا! من أخذت الملف؟" كرر زياد سؤاله وهو يكاد يفقد أعصابه.

تنهدت شهد بنفاذ صبر، وقالت بصوت حاد:

"لا تُدخلني في عملك وملفاتك يا زياد. لم أدخل إلى هنا ولم آخذ شيئاً".

انتقلت نظرات زياد الحادة إليها لكنه لم يُعلّق، فأعادت نهى نفس الإجابة التي قالتها شهد، وكأنها تريد إنهاء هذا الاستجواب المحرج.

"ماذا يوجد في ذلك الملف؟ وما عملك به؟" سألت شهد وهي تحاول فهم سبب غضبه العارم.

"إنه للمشروع الجديد"، أجاب زياد بصوت غاضب. "وإذا اختفى، فسأخسر كثيراً، هل فهمتِ الآن؟"

صدمت شهد من كلامه، وفجأة تذكرت طلب ماهر منها. ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تحاول إخفاء توترها، بينما كان عقلها يُعطيها الكثير من الأفكار السوداء. انسحبت بصمت لتطلب رقم ماهر والغضب يعمي عينيها.

استفزّ صمت نهى عاصفة أخرى في نفس زياد، فبدا وكأنه يبحث عن مبرر آخر للثوران. ترك الأدراج المقلوبة وعاد بظهره إلى المكتب، وظلّت أنظاره تتجول في أرجاء الغرفة كوحش محاصر يبحث عن منفذ للهرب.
اقتربت منه نهى بخطوات هادئة، تحاول أن تبدو طبيعية قدر الإمكان، وقالت بصوت خافت كأنها تُسرّ له:

"لا أريد أن أكشف أمر شهد، لكنني رأيتها تدخل إلى مكتبك منذ يومين. لم أهتم للأمر حينها، ظننتُ أنها تريد شيئاً ما، ولم يخطر ببالي أيّة نيّة سيئة".

تسمّر زياد في مكانه للحظة كأنّما أصابته صاعقة، ثم التفت إليها ببطء، عيناه تتوقدان بلهيب الشكّ. "متأكّدة أنتِ؟" سأل بصوت أجشّ كحفيف الأشجار في ليلة عاصفة.

ارتبكت نهى للحظة تحت وطأة نظراته الثاقبة، لكنها تماسكت سريعاً وأجابت بصوت مرتعش تحاول من خلاله إخفاء ارتباكها:

"أجل... هكذا بدا لي".

لم يجبها زياد، بل انطلق من أمامها كالسهم المنطلق من قوسه، واتجه نحو غرفة شهد بخطوات غاضبة. كان غضبهُ يتصاعد مع كل خطوة يخطوها، حتى كاد أن يُفقده صوابه. وصل إلى باب الغرفة ودفعه بعنفٍ دون أن يكلف نفسه عناء الطّرق.

انتفضت شهد من مكانها كأنّما لدغتها أفعى، وأغلقت هاتفها بسرعة وهي ترتجف خوفاً، فقد بدا زياد في هيئة لا تُبشر بالخير. اقترب منها بخطوات ثائرة وهو يُزمجر بصوت يهزّ أركان الغرفة:

"مع من كنتِ تتحدثين؟"

ارتبكت شهد وتلعثمت بكلمات غير مفهومة، مما زاد من غضب زياد الذي اندفع نحوها كالنمر الكاسر وانتزع الهاتف من يدها بعنف. كانت نظراته كافية لإشعال النيران في المكان وهو يرى رقم ماهر على شاشة الهاتف. صرخ بصوت مدوّي جعلها تقفز من مكانها:

"ألم أخبرك أن لا تتحدثي معه مجدداً؟ ألا تفهمين؟"

تجمدت شهد في مكانها من هول الصدمة، فقد كان غضب زياد مرعباً. لم تستطع النطق بكلمة، فقد أطبق الخوف على حنجرتها. أكمل زياد بصراخ أشدّ قسوة وهو يهزّها من ذراعها بعنف:

"هل تخونينني يا شهد؟ هل تتآمرين عليّ مع ماهر؟ هل أنتِ من أوصل له الملف؟"

أفاقت شهد من صدمتها وحاولت التحدث بصوت مختنق من البكاء:

"صدقني يا زياد، لا ذنب لي... لم أعطهِ شيئاً".

دفعها زياد بعيداً باستهزاء قائلاً:

"سأعلمه مقامه ذلك السافل، وسأتعامل معه... وبعدها يأتي دورك، لستُ متفرغاً لكِ الآن".

خرج زياد من الغرفة بغضب عاصف، وصفق الباب خلفه بقوة هزّت جدران الغرفة. أما شهد، فقد انهارت على سريرها وهي تبكي بهستيرية، تحاول أن تستوعب ما حدث توّاً. عادت بذاكرتها إلى مكالمتها مع ماهر، إلى إنكاره معرفته بأي شيء، إلى محاولتها لفهم ما يدور حولها قبل أن يهجم عليها زياد كالإعصار ويُدمّر ما تبقّى من هدوئها.

.....

غليان في صدر زياد، غضب يشتعل في عينيه مثل لهب مشتعل، بينما يقف عند باب منزل ماهر. المكان هادئ، هادئ كصمت الليل، وكأن الجدران تتآمر على ضيفها الغاضب. لم يجد سوى صمت يلف المكان، وكأن المنزل نفسه قرر إخفاء ماهر عن عيونه. حاول زياد الاتصال بماهر، لكن صوت الهاتف المكتوم لم يجبه سوى بالصمت، وكأن المصير قد قرر غياب ماهر عنه، فلم يجد سوى منزل شقيقته ملجأ لغضبه الذي لا يطاق.

فتح له سامر الباب، وكأن العالم يريد أن يرى وجه زياد المتقد غضباً. دخل زياد بغضب مشتعل يقترب من شدته من البرق الشديد. وجد والدي ماهر وإخوته جالسين في الصالة، فنهضت شقيقته بسرعة قائلة:

"ما بك يا زياد، ما هذا الدخول المفاجئ؟"

كان زياد يُعبّر عن غضبه بصوت عالٍ يرعب كل من حوله:

"جئت لتضعوا حدّاً لولدكم الذي لا ينفك عن التواصل مع زوجتي، واحذري ماذا، ابنكم سرق ملفاً يخص عملي، ويريد إيذائي في عملي!"

صُدِمَ كل من في المجلس، فقالت شقيقته:

"مستحيل، ماهر لا يفعل شيئاً كهذا!"

سخر زياد بقلب متقد النار:

"بل فعل أكثر من ذلك، صدقيني!"

تدخل والد ماهر ببرود يعكس غيابه عن التصور لسلوك ابنه:

"وإن كان كلامك صحيحاً، ما شأننا نحن؟"

تفاجأ زياد من هذه الكلمات:

"ألا يعنيكم أن ابنكم يحاول إيذائي؟"

دخل سامر في الحديث ليؤكد على موقف عائلته ببرود:

"أنت أيضاً آذيته، فشيء طبيعي أن يرد عليك بهذه الطريقة، ولو أنني لا أفضلها لأنها لا تخرج من أبناء عائلة السيد، ولكن لا يحق لك أن تشتكي يا خالي!"

ابتسم زياد بسخرية أكبر، وصفق له قائلًا:

"أحسنت، فعلاً أحسنت!"

صمتت شقيقته، لتقول سيدرا شقيقة ماهر بصوت متكبر:

"ثم إنه لا يجب أن تشتكي لنا من كلام ماهر مع شهد، فلِتذهب وأعد تربية زوجتك، لماذا تحدثه وتعطيه فرصة الكلام إن كانت تعتبرك فعلاً زوجها؟"

صُدِم زياد من جوابها، ليتقدم منها ويقف أمامها قائلاً بصوت خافت ونبرة حادة:

"لو لم تكوني ابنة شقيقتي، لكنت حطمت رأسك على كلامك هذا، العيب في أخيك، ليس في زوجتي!"

ابتسمت سيدرا بسخرية وصمتت، ليوجه حديثه لشقيقته:

"أهنئكِ أختي، أولادك يزدادون أدباً يوماً بعد يوم!"

ثم خرج من المنزل بأكمله بغضب كبير، وقد استقبل اتصالاً من سكرتيرته في الشركة ليزداد غضبه وجنونه أكثر فأكثر.

كانت الأضواء تتلألأ كنجوم في ليل دامس، تعكس على زجاج النوافذ بريقاً بارداً، لكن زياد لم يشعر سوى بالظلام يعتصره من الداخل. اخترق ممرات الشركة بخطوات غاضبة، كأنه إعصار هائج يبحث عن منفذ لثورته. زجاجات النوافذ التي كانت تتلألأ بلطف قبل لحظات، بدت الآن كأنها تشع بريقاً حاداً كشظايا غضبه، تعكس صورة مشوهة لعالمه الذي انقلب رأساً على عقب.

لم يجرؤ أحد على اعتراض طريقه، فملامحه كانت توحي بعاصفة عاتية لا تبقي ولا تذر. "أستاذ زياد!" كلمات السكرتيرة لاحقته كصدى باهت، صوتها يرتجف قلقاً وهي تجري خلفه محاولة اللحاق به قبل أن يصل إلى مكتب المدير التنفيذي. كانت تلهث محاولة التقاط أنفاسها، كأنها عداءة في سباق ماراثوني طويل، وجهها شاحب، وتحاول عبثاً أن تهدئ من روعه بكلمات توسليّة لا تجد لها صدى.

ارتسمت على وجوه الموظفين الذين كانوا منهمكين في عملهم نظرات قلقة ممزوجة بالفضول، كأنهم يشاهدون عرضاً درامياً مفاجئاً. حاولوا جاهدين إخفاء ارتباكهم خلف ستائر من الهدوء المصطنع، لكن السكرتيرة لم تستطع أن تتماسك أكثر من ذلك. "أرجوك، هناك أمر عاجل يجب أن تعرفه أولاً." قالتها بصوت مضطرب يحمل في طياته نذير شؤم.

توقف زياد في منتصف الغرفة، وكأنه أصيب بصاعقة كهربائية، جسده متصلب ووجهه مليء بالغضب والترقب. حدق فيها بنظرات متقدة كأنه يقول: "تكلمي ولا تطيلي." "ما هو؟" قالها بصوت كاد يقطع صمت المكتب الثقيل.

أخذت تروي له ما حدث بصوت متقطع: "لقد تلقيت اتصالاً من الشركة... لقد علموا بفقدان الملف..." توقفت لحظة تراقب ردة فعله، ثم أكملت بصوت أقرب للنجوى: "... وقد قرروا وقف التعامل معنا حتى إشعار آخر. وهم ينظرون إلينا الآن كمخاطر كبيرة على استثماراتهم."

شعر زياد بأرض الواقع تنهار تحت قدميه، دوامة من الصدمة والغضب اجتاحته. "ماذا؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟" صرخ بصوت ممزوج باليأس والغضب، كأن الكلمات تحرق حلقه.

حاولت السكرتيرة تهدئة الأوضاع المشتعلة، قائلة بصوت حازم: "هناك أيضاً بند في العقد يفرض علينا دفع تعويضات في حال عدم الوفاء بالشروط. ربما يكون هناك شرط جزائي كبير، لكننا لا نعرف المبلغ المحدد حتى الآن."

تجمد زياد في مكانه كأنها ألجمت لسانه، كلمتها كالصاعقة التي صعقته. "شرط جزائي؟ إذن، ليس فقط أننا فقدنا المشروع، بل سنكون مجبرين على دفع مبلغ ضخم بسبب خطأ لم يكن لنا يد فيه!"

وبينما كان يتحدث، دخل المدير التنفيذي عادل إلى المكتب، وجهه يحمل مزيجاً من القلق والجدية، محاولاً أن يستعيد السيطرة على الموقف المتوتر. "زياد، هل يمكننا مناقشة هذا بهدوء؟ هناك خيارات يمكننا استكشافها."

لم يستطع زياد أن يتحمل المزيد، كان بركاناً على وشك الانفجار. "هدوء؟ كيف تريدونني أن أظل هادئاً؟ لقد عملت على هذا المشروع لسنوات، والآن أصبحنا في خطر فقدان كل شيء بسبب فقدان ملف واحد." كلماته كانت مشحونة بالغضب والحزن والإحباط.

نظر عادل إلى السكرتيرة بنظرة عابرة، ثم عاد لينظر إلى زياد، محاولاً تهدئة ثورته. "نحن نعمل على حل هذه المشكلة بأسرع وقت ممكن. سنحاول التفاوض مع الشركة وتقديم خطة تعويض أو أي بديل مناسب. لكننا بحاجة إلى وقت ومزيد من التفاصيل."

هز زياد رأسه بعنف، وكأنه يرفض تصديق ما يسمعه. "سأنتظر، ولكن الوقت ليس في صالحنا. إذا كانت هناك أي خطوات يمكن اتخاذها، فلابد من البدء بها فوراً." قالها بحزم، فقد فقد الأمل في إيجاد حلول سريعة وفعّالة.

غادر زياد المكتب بخطوات سريعة، ممزوجة بالغضب والإحباط، بينما كانت السكرتيرة تتبعه بنظرات مليئة بالأسف والقلق. كانت تعلم أن الخسائر التي تواجهها الشركة الآن ليست مجرد خسائر مالية، بل هي ضربة قاصمة لسمعتها ولجهود سنوات من العمل الدؤوب.

.....

انتفضت شهد وصوتها يرتجف غضباً وهي تصرخ في الهاتف:

"أريد أن أعلم من الذي أعطاك الملف، هيا تكلم ماهر! لا تلعب معي!"، كانت نبرتها حادة كالسكين، تحمل في طياتها تهديداً مبطناً.

على الطرف الآخر من المكالمة، تنهد ماهر بضيق محاولاً كبت غضبه:

"لقد حصلت عليه بطريقتي الخاصة، لا شأن لك بما يحدث الآن." قالها بنبرة باردة، تحاول أن تخفي قلقه وخوفه من انكشاف أمره.

"هل تظنني حمقاء؟" صاحت شهد بصوت ممزوج بالغضب والسخرية، "أليست نهى التي أعطتك الملف؟" كانت كلماتها كطلقات نارية تصيب هدوء ماهر المتصنع.

صمت ماهر لبرهة، يحاول أن يجد الكلمات المناسبة، ثم قال بصوت خافت:

"لا ليست نهى... أنا... أنا دخلت منزل زياد وسرقته. وإذا أردتِ أخبريه بذلك." اعترف بجريمته بصوت متهدج يحمل في طياته نبرة من التحدي واللامبالاة.

تجمدت الدماء في عروق شهد، فكلماته كانت كالصاعقة التي صعقتها. لكنها سرعان ما استعادت رشدها، وقالت بصوت فيه نبرة تهديد:

"لا لن أخبره بالسرقة، سألفت نظره بأن نهى هي من سلمتك إياه. لقد أخبرتك أن تجد خطة أخرى ولكنك لم تستمع إليّ. سترى يا ماهر، سأجعلك تدفع ثمن غبائك."

أغلقت شهد الهاتف بصوت يشبه صفعة على وجه ماهر الذي ظل يحملق في الهاتف بغضب واحتقار. تردد صدى كلماتها في رأسه كأنه صدى لعنة قديمة. كان يؤنبه ضميره ويشعر أنه من الخطأ أن يورط شهد في هذه المؤامرة، ولكن بعد مكالمتها هذه تأكد أنها أصبحت تميل إلى زياد وتدافع عنه، فاشتعل غضبه كالنار في الهشيم، وأقسم أن ينتقم منها ويجعل حياتها جحيماً لا يطاق.

و بينما كان ماهر غارقاً في غضبه، كانت نهى تقف خلف باب شهد تستمع إلى المكالمة برعب متزايد. كانت كلمات شهد كالخناجر تمزق قلبها، وخوفها من انكشاف أمرها يخيم على صدرها ككابوس ثقيل. ما إن أنهت شهد مكالمتها حتى هرعت نهى إلى مكالمة ماهر، وجهها شاحب وصوتها مضطرب وهي تقول: "ماهر، لقد سمعت كل شيء! يجب أن نفعل شيئاً بسرعة قبل أن تخبر زياد وتدمرنا!"

.....

دخلت نيفين مكتب زياد كالعاصفة، عيناها تتطايران فرحًا باكتشافها،

"لقد علمت من الذي سرق الملف!" قالتها بنبرة منتصرة كأنها فازت بمعركةٍ طاحنة.

استدار زياد نحوها بسرعة، وجهه مُتسمرٌ بالترقب، "من هو؟" سأل بنبرة حادة، كأنه يُطلق سهماً في الهواء.

"عادل!" قالتها نيفين بصوت منخفض، لكن الحماس كان يتراقص في عيونها، "لقد سمعته يتحدث مع شخص يدعى ماهر وفهمت أنه سرق الملف وأخبر الشركة التي تعاقدنا معها أن الملف قد ضاع."

كز زياد على أسنانه بقوة حتى كاد أن يُحطّمها، وتحولت نظراته الهادئة إلى شرر من الغضب، "اللعينان! أقسم أنني سأجعلهما عبرةً لكل من يحاول اللعب معي." تمتم بكلمات مُتقطعة كأنها همس العاصفة.

نهض زياد من مكانه بعنف كالثور الهائج، وتوجه بخطوات سريعة نحو مكتب عادل.

اقتحم مكتبه كالإعصار، مُحدثاً ضجيجاً مُدوّياً. لم ينطق بأية كلمة، بل اتجه نحو عادل الذي نظر إليه برعب، وأمسك بتلابيب قميصه بقوة، رافعاً إياه من على كرسيه. وقبل أن يتمكن عادل من النطق بكلمة واحدة، هوَى زياد بقبضته على وجهه لكمةً قوية، أرسلته مطروحاً على الأرض بصوت مدوّ.

"تتآمر أنت وماهر عليّ أيها اللعين؟" صرخ زياد بصوت يهز أرجاء المكتب.

لم ينتظر زياد رداً، بل انقض عليه مرة أخرى كالصقر الذي ينقض على فريسته، "تخونني أنا يا حقير؟" قالها بينما كانت قبضته تُمطر وجه عادل باللكمات.

"سنوات وأنا أعمل على هذا المشروع! تُدرك كم كلّفني من جهدٍ وتعبٍ؟ أنا امنتك على كل ما يخص شركتي وعملي، وفي النهاية تخونني؟" كانت كلماته تنهمر كالمطر الغزير، مُعبّرة عن خيبة أمله وغضبه الهائل.

استمر زياد في ضرب عادل بلا هوادة، حتى أنهكه التعب، فأرخى قبضته ووقف ينظر إلى عادل بنظرات مُلتهبة. حاول عادل النهوض بصعوبة، وهو يمسح الدماء التي سالت من أنفه وفمه بظهر يده. "لا شأن لي... لم أفعل شيئاً... ابن شقيقتك هو من سرق الملف... لستُ أنا" قالها بصوت مُتقطع من ألم الضربات.

"بمساعدتك يا حقير! لقد سرقتما من منزلي!" صرخ زياد بجنون، "أقسم أنني سأُعيد تأديبكما من جديد."

ودون أن يُضيف كلمة أخرى، خرج من المكتب، صافقاً الباب خلفه بقوة كادت أن تُحطمه. كان يتجه نحو ماهر هذه المرة، عازماً على أن يُعلمه درساً لن ينساه أبداً.

.....

اقتحمت نهى غرفة شهد كإعصار عاتٍ، وجهها شاحب كالجثة الهامدة، عيناها مذعورتان كغزال رأى صياداً يتربص به. "شهد! الحقي زياد، سيقتل ماهر! صدقيني سيقتله!" صرخت نهى كالملدوغة، كلماتها تتدافع من فمها كأنها تيار لا يمكن إيقافه.

قفزت شهد من مكانها كالملسوعة، انتابها الخوف مثل صعقة كهربائية تجري في أوردتها، "ماذا حدث؟" سألت بصوت مرتجف، قلبها يدق بعنف كأنه سيهرب من صدرها.

"لقد علم أنه سرق الملف!" قالتها نهى بصوت متقطع من فرط الهلع، "ويعتقد أنه طلب منك أنت أن تساعديه في سرقته، وأنك على علاقة به. يجب أن تلحقي به بسرعة قبل فوات الأوان، لا نريد أن يصبح ماهر في عداد الموتى ونخسر زياد!"

وقفت شهد لحظة تحاول أن تجمع شظايا عقلها الذي تشتت تحت وطأة الصدمة، "وكيف علمتِ أنتِ؟" تمتمت بصوت منخفض يكاد يكون همساً.

ارتبكت نهى لحظة، ثم قالت بصوت مرتجف:

"آه... سكرتيرة زياد أخبرتني... قالت إنه خرج غاضباً ويتوعد ماهر بالقتل. أرجوكِ شهد، الحقي به قبل أن تقع الكارثة."

بدت شهد تائهة بين الخوف والحيرة، كأنها غارقة في رمال متحركة لا تجد لها مخرجاً. "إلى أين؟ كيف سأعلم بمكانه؟" سألت بصوت مرتجف، ونظراتها تحاول التماسك وإيجاد حل.

"في منزل ماهر بالطبع! هيا انطلقي!" قالتها نهى بصوت عالٍ، دفعة أخيرة منها لدفع شهد للتحرك قبل فوات الأوان.

لم تضيع شهد وقتاً أكثر في التفكير، فقد استيقظ إحساسها بالخطر، وانطلق الخوف على زياد يدفعها إلى الأمام. خرجت من المنزل كالسهم المنطلق، ركبت سيارتها وانطلقت بها نحو منزل ماهر بسرعة جنونية، قلبها ينبض بقوة كأنه سيقفز من صدرها، والقلق ينخر في عقلها كالسوس. كانت الدقائق تمر كأنها دهور، وكل ما تتمناه هو الوصول إلى ماهر قبل أن تتحول مخاوفها إلى حقيقة لا يمكن تداركها.

.....

كان المشهد أشبه بكابوس مرعب يتجسد أمام عينيه، طعنة غادرة اخترقت قلبه وكيانه وروحه. لم يستطع عقله استيعاب أن شهد، حب حياته ونبض قلبه، ممكن أن تقوم بهذا الفعل الشنيع. خيانة! كلمة كبيرة تدمر عوالم، وفعل مخز يمزق أقدس الروابط. لم يتوقع يوماً أنها ستقدم على خيانته.

أحس زياد بألم لا يوصف يعتصر قلبه، روحه تتفتت كقطع الزجاج المحطم، ووجوده يكاد يتلاشى كالدخان في الهواء. تلاطمت مشاعر الصدمة والغضب والجرح الغائر في داخله كأمواج بحر هائج، ما بين تصديق ما يراه وإنكار واقع لا يريد الإذعان له.

وفي لحظة من لحظات الجنون المؤقت، استيقظ زياد من ذهوله واندفع كالثور الهائج نحو الرجل الذي كان يحاول التقرب من شهد، يحاول الاقتراب منها بطريقة أشعلت نار غيرته ألف مرة. لم يفكر، بل ترك لغضبه العنان، انقض على الرجل وأمسك به، أبرحه ضرباً مبرحاً وهو يصرخ ويطلق الشتائم والكلمات التي لا يدرك معناها.

لم يكن عقل زياد يعمل، كانت الصورة التي رأى فيها شهد تتكرر أمام عينيه كشريط سينمائي لا يتوقف. لم يسأل نفسه كيف وصلت شهد إلى هنا؟ ما الذي تفعله مع هذا الرجل الغريب في منزل ماهر؟ وما علاقة ماهر بكل هذا؟ كان الغضب يعميه عن كل شيء، يدفعه لإفراغ غضبه وحزنه في ذلك الرجل الذي تحول وجهه إلى وحل من الدماء.

استمر زياد في ضربه بعنف، يكسر ويُحطم كل شيء حولهم، حتى أنهكه التعب، وبينما هو يوشك أن يسقط من الإرهاق، لمح حركة خفيفة من شهد التي كانت تحاول النهوض بصعوبة، وكأنها تستجمع قواها المنهارة. كانت عيونها تذرف الدموع بصمت، تريد أن تتحدث، أن تشرح، أن تطفئ نار الجنون التي أشعلها سوء التفاهم، لكن جسدها خانها، وشلها الخوف والوهن عن الحركة.

وما إن انتبه زياد لحركتها، حتى هجم عليها كوحش كاسر، أمسكها من شعرها بقوة أفقدتها توازنها، وهوى عليها بالصفعة الأولى التي أسقطتها أرضاً كدمية قماشية مهترئة. لم تستطع شهد رفع رأسها، كانت الصفعة قوية كفاية لإسكات أية محاولة للتفسير أو التوضيح. بينما كان زياد يستعد لإطلاق العنان لغضبه عليها مرة أخرى، دوى صوت مدو في أرجاء المكان، اقتحم رجال الشرطة الغرفة، يتبعهم ماهر، الذي كان يشير إليهم بصوت منتصر وهو يقول:

"أريد أن أبلغ عن هؤلاء جميعاً!"

سقطت كلمات ماهر كالصاعقة على زياد الذي وقف مكانه كالصنم، عاجزاً عن الفهم أو الإدراك. لم يستوعب ما يحدث حوله، وكيف انقلب الوضع رأساً على عقب. أبعده رجال الشرطة عن شهد بصعوبة، بينما كانت هي لا تزال ملقاة على الأرض، غارقة في صدمتها ووجعها، تنظر إلى زياد بنظرات دامعة، تحاول أن تخبره بحقيقتها التي لا يعلمها. وفي زاوية الغرفة، كان الرجل الذي تعرض للضرب ملقى على الأرض، ملطخاً بدمائه، شاهداً صامتاً على مكيدة من تدبير ماهر ونهى.

هل نُدرك حقاً معنى الظلم؟ هل تستطيع عقولنا فهم أبعاد هذه الكلمة القاتلة؟ ربما جُلّ ما نعرفه عنها هو ذلك الشعور المُرّ الذي يخترق قلوبنا ويُحطّمنا عندما نُجبر على الرضوخ لقرار لا نرضاه، أو نتحمل عواقب أفعالٍ لم نُقترفها. ربما العالم بأسره غارقٌ في دائرة لا تنتهي من الظلم والظّلمة، كلّ منّا يُجرّبها بطريقته الخاصة.

لكن أن تُظلمي بمكيدةٍ دنيئةٍ لا شأن لكِ بها، فهذه هي القاضية، الطعنة الغادرة التي تُوقظكِ على حقيقة مُرّةٍ هي أنّكِ لستِ سوى دمية صغيرة في يد أقدار لا ترحم.

كانت شهد مستلقية على سرير أبيض بارد في غرفة بيضاء أبرد، تُحاوطها رائحة المطهرات المُقيتة التي تخترق أنفها بلا هوادة. وصلت الأمور إلى حدها، وتحوّلت حياتها في لحظةٍ إلى كومة من الفوضى والدمار بعد أن أُلقي القبض على زياد، وتمّ نقلها هي إلى المستشفى.

كانوا ينوون زَجّها في السجن بتهمة "الفعل الفاضح" داخل منزلٍ لا تملكه، مع رجلٍ لا تعرفه. حاول ماهر والذي هو مالك المنزل شرح الملابسات، فقد ادعى أنه كان ذلك الرجل "سعيد" نزيلاً عنده لبضعة أيام قَدِم من مدينةٍ أخرى ليؤدي مهمّة عمل، وأراد ماهر أن يُكرمه. لم يكن ليتخيّل أن "الصدفة" ستُوقِع "سعيد" في هذا الفخ مع زوجة خاله.

وفي المستشفى، وبسبب حالة شهد السيئة وعدم قدرتها على النطق، قرر الأطباء إخضاعها لفحوصاتٍ أعمق. وكانت الصدمة عندما اكتشفوا وجود مادة مخدرة في دمها، مادةٌ أفقدتها القدرة على الحركة والكلام، وحولتها إلى جسد بلا روح.

دخل والداها إلى الغرفة، قلقٌ يجتاحهما على فلذة كبدهما التي تحوّلت إلى كومة من العدم. اقتربت منى من ابنتها، عيونها تذرف الدموع، قلبها يُقطّع لما آلت إليه حالة ابنتها، "شهد حبيبتي، ما بكِ يا روح قلبي؟" سألتها بصوتٍ مُرتجف، تحاول التماس أية استجابة منها.

لكن شهد ظلّت صامتة، تنظر إلى أُمها بنظرةٍ باردة خالية من أية مشاعر. أشاحت بوجهها عنها وعن والدها، لا تريد أن تُجيب على أسئلة لا تملك لها إجابات.

استدارت منى نحو زوجها، الغضب يُسيطر على نبرة صوتها

"هذا ما جنيناه على ابنتنا من وراء ذلك اللعين! هل سينفعنا والدك الآن يا ترى؟ هل سيستطيع أن يُخرج ابنتنا من هذه المصيبة؟" كانت كلماتها كالسهام المُسمومة تُصيب زوجها في مقتل، فهو يُدرك في قرارة نفسه أنها على حق.

وقف والد شهد، صمتُه يُعبّر عن ندمه الشديد، يعلم أنه أخطأ بحق ابنته، وأنه تسبّب في تعاستها، لكن بماذا ينفع الندم الآن؟ "كفى، اصمتي" قالها بصوتٍ مُرهق "ليس هذا وقت العتاب".

"ومتى وقته إذاً؟" صاحت به منى "انظر إلى ابنتنا، إلى أية حالة وصلت؟ هل سيُرضيك هذا الوضع؟"

تنهد والد شهد بِقلة حيلة، وخرج من الغرفة بخطواتٍ ثقيلة، مُحاولاً الهروب من حقيقةٍ أليمة لا يستطيع تحمّلها. بينما ظلّت منى بجانب ابنتها، تربت على شعرها بحنانٍ بالغ، تحاول أن تُهدئ من روعتها،

"ستخرجين معافاةً بإذن الله يا حبيبتي، وسيُنجّيكِ الله من ذلك الحقير، لا تقلقي" كانت تُردّد هذه الكلمات وكأنها تُخاطب نفسها، تحاول أن تُقنع نفسها قبل ابنتها بأنّ الأمل لا يزال موجوداً.

لكن شهد ظلّت غارقة في صمتها، لا تستجيب لكلمات أُمها، وكأنها في عالمٍ آخر، عالمٍ مُظلم صامت لا يُشارِكها فيه أحد. أدركت في قرارة نفسها أنّ الصمت هو اللغة الأصدق في هذه الحالة، هو اللغة التي تُعبّر عن عجزها عن فهم ما حدث، وعن ضعفها أمام قدرٍ قاهر حطّمها بلا رحمة.

••

كانت نهى غارقة في بكائها، دموعها لا تتوقف كأنها نهر فاض على خديها، تحاول عبثاً أن تمسحها بيديها المرتجفتين، لكنها تتدافع للنزول كأنها تعبّر عن حزن لا ينتهي. على الجهة الأخرى، كان ماهر يجلس بهدوء مريب، يراقب انهيارها بنظرات باردة خالية من أية مشاعر. كان يُدخّن بشراهة، ينفث الدخان في الهواء وكأنه يطلق هموماً ثقلت على صدره.

"ألم تنفد دموعك بعد؟" قالها ماهر بصوت باهت، نبرة السخرية تتخللها. "منذ ساعتين وأنتِ على هذه الحالة، ألا تملين؟"

رفعت نهى عيونها الدامعة، تحدّق فيه بنظرات مليئة بالعتاب والألم.

"لقد أخبرتني أنك لن تؤذيهما! كان هدفك فقط أن يتظاهر سعيد بالتقرب من شهد ليشاهدهما زياد في ذلك الموقف، وأن أقصى ما سيحدث هو أن يبرح زياد ذلك الرجل ضرباً ثم يغادر المكان! لماذا فعلت هذا؟ لماذا اتصلت بالشرطة؟"

تنهد ماهر بضيق، وأشعل سيجارة جديدة.

"يا لغبائك! لا تُدركين أن ما فعلته كان لصالحنا نحن الاثنين! أنتِ تريدين زياد، وأنا أريد شهد."

انتفضت نهى من مكانها، الغضب يمزّق أحشاءها.

"أجل، صحيح! اتفقنا أن ننفذ خطتنا بأقل الأضرار! ولكن لماذا طلبت الشرطة؟"

نفذ صبر ماهر من غبائها.

"لكي يصبح لهما ماضٍ مخزٍ! سيُسجّلان في سجلات الشرطة بقضية شرف لا تُمحى! هل فهمتِ الآن؟"

"لا أفهم، اشرح لي أكثر."

صرخ بها قائلاً:

"أعني أنهما عندما يخرجان من هذه المصيبة، لن يستطيعا معارضة أحدٍ بأية كلمة! شهد ستتطلق من زياد وتعود إلى بيت أهلها، وأنتِ ستبقين إلى جانبه ولن يجرؤ على التفكير بغيركِ أو التخلي عنكِ، أما أنا، فسأفعل بشهد ما أريد، ولن تستطيع الوقوف في وجهي، بل ستكون شاكرةً لي لأنني سأتزوجها بعد هذه الفضيحة. وبذلك أكون قد فزتُ بكل شيء: أولاً لأني أخذت حقي منها ومن خالي، فقد علمت أنها كانت على خاطر بهذه الزيجة من أجل أمواله، وثانياً سأسترجعها لإني مازلت أحبها"

ساد الصمت في الغرفة، وظلت نهى تفكر في كلامه، تحاول أن تستوعب أبعاده، بينما أردف قائلاً بشرود:

"كنت أُعدّ الأيام والساعات لكي أحظى بشهد وتصبح زوجتي، لكنها طعنتني في قلبي، وتزوجت من غيري. كنت أُعاني آلاماً لا تُطاق وأنا أتخيلها مع زياد، وحاولتُ نسيانها والمضي قدماً في حياتي لكن دون جدوى، فأنا ما زلت أُحبها. ولم أكن أُخطط لتدمير حياتها، لكن ما حدث مؤخراً أثار جنوني، ولستُ نادماً على ما فعلتُه."

بلعت نهى ريقها بقلق ممزوج بالخوف، الصمت الثقيل يعلو المكان بينما ترقبت معالم وجهه بانتظار الرد الآتي من ذلك الشخص المتحكم. بعد لحظة مضت كألف سنة، تحركت شفتاها ببطء تام وجسدها يرتعش، لتنطلق كلماتها بصوت يعبق بالقلق والحزن المتصاعد.

"لقد تحدثت بكل دهشة، وبكل وجع.. هل يجب عليَّ أن أنسى كل شيء؟ أيام يخرج فيها زياد وتتلاشى آثار مرارة الأحداث التي مررنا بها؟"

ضحك ماهر ببرود بتلك السخرية القاتلة، مقاوماً دوامة الشفقة التي عصفت بمشاعرها.

"نعم، عزيزتي. انسِ كل شيء.. انتهت الأمور"

تجهم وجهها وارتسمت عليه ملامح القلق، وقالت بصوت خافت كأنها تتحدث لنفسها:

"وماذا عن سعيد؟ لقد خدعته، لم تخبره أن غضبه سيؤدي به إلى كل هذا؟"

رمقها بنظرة ساخرة، وقال بلهجة باردة تخلو من أي نبرة ندم:

"لا تقلقي عليه، سأُحسِن صنيعه. سيشهد لصالحنا، وسيقضي بضعة أشهر في السجن، وسيخرج بعدها بمبلغٍ كبير، هذا ما وعدته به"

هزّت نهى رأسها بيأس، وقالت بصوت متهدج:

"وماذا عن زياد؟ متى سيخرج؟".

أطلق ماهر زفيراً من فمه، وقال ببرود:

"لا أعلم، سأتحدث مع سعيد ليتنازل عن حقه، على أي حال، لا أظن أنه سيبقى طويلاً. سيعتبرونها قضية شرف، وأنه دافع عن عرضه، لذا لا تقلقي، لن تتجاوز مدة سجنه بضعة أسابيع"

"كيف تمكنت من التحكم في شهد؟" دوي السؤال ينفجر في جوانب المكان، يدل على تساؤلاتها المحاطة بالغموض والاستنكار.

رد ماهر وهو يرتدي قناع الكيد بإتقان.

"لم تكن الأمور صعبة بالنسبة لي، عند وصولها، قمت بتخديرها وحملتها إلى غرفة النوم، وانتظرت حتى وصل زياد ودخل سعيد.. وبعدها حدث ما حدث."، تفوه بشكل متحدٍ، كمن يرقص على أوتار الخيانة دون رادع.

ودون أدنى اهتزاز بنبرة صوته، استمر في رسم سيناريوهاته الباردة بأنامله، كشتلة تنمو في أعماق العتمة، حتى وهو يعيش خلف الستار. بينما نهى وضعت يديها على رأسها بيأس، كأنها تُحاول إيقاف سيل الأفكار السوداء التي تجتاحها. نظر إليها ماهر بسخرية قائلاً:

"لا داعي لكل هذا القلق، الأمور تسير كما خططنا لها، كوني هادئة!"

أومأت برأسها بصمت، غارقة في مستنقع قلقها وخوفها، بينما ماهر جالس في هدوء، يستمتع بدخان سيجارته، ببرود أعصاب مُرعب، كأنه لم يُدمر حياة شخصين بكل هذه البساطة.

من خلف القضبان الحديدية، كان جالساً بكل برود، عيناه متوهجتان بلون الدم، محمّلتان بأثقال الألم الذي يمزق قلبه. كان يراقب العالم الخارجي من بعيد، متسائلاً في ذاته: كيف تقدم على ارتكاب فعلٍ كهذا؟ هل هو المُلام؟

يتساءل في سرّه هل كان عليه أن يريها مقامها، هل كان يجب عليه أن يظهر لها قوتها ولا يتركها تمتلك قلبه، أم أن ضعفه تجاهها كان خيانةً لأحاسيسه؟ كيف يمكن أن تقابله بمثل هذا الغدر في ختام كل ما بذله من أجلها؟

في عمق تفكيره، أدرك أنه قد أساء الاختيار منذ البداية. كيف تجرأ على الانغماس في حبها؟ كان يجدر به ألا يسعى نحوها، ألا يجعل قلبه هدفاً لسهام الضعف الذي أحاط بالأمل.

تساؤلاته تعقدت حول فكرة الطلاق، حتماً سيطلقها حالما يخرج من هذا المكان البارد والمعتم الذي يمثّل غربة روحه. كانت لذعة الخيانة لا تفارق قلبه؛ لقد خانت أصدق مشاعره، ولم يعد في قلبه متسع للعودة.

تنهد بحرقة وعمق الألم يجذبه، قبل أن يقطع عزلة فكره صوت فتح باب الزنزانة. دخل العسكري بوجهٍ بارد:

"لديك زيارة."

نهض بتعب وهيئته البائسة تُعبّر عن صراعه الداخلي. خرج بصمت نحو المكان الذي تنتظره فيه نهى، وما إن رأته حتى هرولت نحوه، كأنها تلتمس الدفء في أحضانه. احتضنته بقوة، عينيها تذرفان الدموع بحرقة، وكأنها تبحث عن الخلاص في ملامحه.

طبطب عليها برفق، ثم أبعدها عنه ليتسنى له أن يجلس بتعب واضح على ملامح وجهه، بينما جلست هي أمامه، بينهم صمت مفعم بالشوق والقلق.

"كيف حالك؟" سألت بنبرةٍ تفيض بالحب والألم.

رد ببرود، وكأن الكلمات تخنقه:

"بخير."

"اشتقت لك كثيراً" نظرت إليه بعينيها المليئتين بالحب والدموع.

ابتسم بتكلفٍ، وأومأ لها بصمت، دون أن يُدلي بكلماتٍ أخرى تدفئ قلبه.

"لقد أصبح المنزل معتماً بغيابك. لا أستطيع الانتظار حتى تخرج وتعود لي." كانت نبرتها تفيض بمشاعر جعلت قلبه يختلج.

تنهد بحرقة، منشداً الحزن:

"لا أتمنى أن أخرج. لا أريد أن أصادف وجهها أو ألمحها ولو صدفة بعد ما فعلته."

ابتلعت ريقها بصعوبة، خفضت نظرها إلى الأرض، ولم يكن في جعبتها ما تقوله. كان الصمت يخيم عليهما كأنها غيمات مظلمة.

"ألم ترينها في المستشفى؟" تجرأ وسألها.

حركت رأسها نافيةً:

"لن أراها، وهي من خانت قلبك ولم تحترم حرمة بيتك."

ابتسم بسخرية مؤلمة، وأومأ لها بصمت، يعكس ألمه الداخلي.

"متى ستخرج من هنا؟" سألت، وهي تتمنى في نفسها أن يكون هناك بصيص من الأمل.

"لا أعلم شيء بعد," جاء رده بخفوت، كأنه يحمل وزن الغم دون أن يدري.

وحل الصمت بينهما، عميقاً كحُفرً في أثينا، حيث لم يعرف أحدهما كيف يُفكّك التعقيدات التي تحملهما. كانت نهى تتألم في صمتها بسبب الندم الغارز في أعماق قلبها، وزياد، لم يكن يملك القوة للدخول في جدال جديد.

انتهت تلك الجلسة، مثقلة بالوعود غير المعلنة، مع وعد نهى بزيارة أخرى له.

••

كانت شهد جالسة في السيارة، تستند برأسها على زجاج النافذة، يخيّم الصمت على أجواء المكان. لم تنطق بكلمة واحدة منذ الحادثة التي مر عليها ثلاثة أيام، كأنها محاطة بفجوة من الألم والأفكار المتضاربة التي تجمعت في عقلها. استشعرت والدة شهد هذا الصمت الذي يثقل الأجواء وقررت كسر الجمود قائلة:

"شهد، حبيبتي، سنذهب فوراً إلى منزلنا."

لكنها أجابت ببرودٍ، متجاهلةً نظرتها القلقة:

"خذوني إلى منزل زياد."

تفاجأ والداها من طلبها المفاجئ وتأمل كل منهما الآخر في ذهول. لتقول منى:

"هل جننتِ؟ بعد أن اتهمك بالخيانة، تريدين العودة إليه؟"

تنهدت شهد بضيق، تلك العواطف المشتتة داخلها كانت تُشعل بقايا الشغف المكسور:

"لا شأن لكما بي. خذاني إلى منزله فقط، ودعاني وشأني."

تنفست منى بعمق، وعيناها تشعان بالغضب الممزوج بالقلق:

"لا، لن أسمح لكِ بالعودة إليه. اكتفينا من هذا. عودي إلى صوابك وانسي أمره، وحالما يخرج من السجن، سيطلقك."

بدا بسام أكثر توازناً وهو يتدخل في الحوار:

"دعيها تذهب الآن، ومن ثمّ، عندما يخرج من السجن، يمكنهما الحديث. لا بدّ أن تبرأ نفسها أولاً، وبعدها تطلب الطلاق. لا يجب عليها أن تترك منزله وهي بريئة مما اتهموها به. يجب أن توضح الأمور أولاً، وبعد ذلك تتخذ موقفها وتطلب الطلاق."

صمتت منى وقد تشبثت يديها بغضبٍ ورغبة في الاعتراض، لكنها لم تنطق بعدها بكلمة. لم تكن قادرة على إقناع ابنتها، وكانت عيناها تقدمان صورة التوتر والخوف اللذين كانا يتخبطان داخلها.

مرت دقائق من الصمت الثقيل قبل أن تصل السيارة أخيراً إلى منزل زياد. نزلت شهد ببرودٍ، وكأنها تخطو على أرض متجمدة، ثم دخلت إلى إطار المنزل دون أن تلتفت، أو تودع والديها الذين وقفا هناك، مشاعر مختلطة بين القلق والغضب.

تنهد والدها بعمق، وكأنه يحمّل على كاهله أعباء العالم بأسره، ثم أكمل طريقه نحو المنزل، بينما كانت شهد تخطو نحو مصيرها، غارقة في ضباب من الحيرة والألم الذي يحيط بها، ماضيةً نحو مواجهة جديدة مع الماضي الذي لا يزال يطاردها.

**

سحبت شهد نفساً عميقاً وهي تقف أمام باب المنزل، حاولت أن تستجمع قوتها من هواء المساء العليل. رفعت يدها المرتجفة وضغطت على زر الجرس، انتظرت وهي تشعر بدقات قلبها تتسارع كطبول حرب تُقرع في صدرها. انفرج الباب فجأة لتجد نهى تقف أمامها، ارتسمت على ملامحها الدهشة الممزوجة بالريبة.

"شهد! ما الذي يأتي بكِ إلى هنا؟" قالتها نهى بصوتٍ مرتاب، تكاد كلماتها تتعثر في حلقها.

ردت شهد ببرود ثلجي، وكأنها تخاطب شخصاً لا يعني لها شيئاً:

"هل نسيتِ أنه منزل زوجي؟"

تغيرت ملامح نهى وانعكس عليها شيء من الجفاء،

"لا لم أنسَ، ولكن زياد أخبرني أنه سيطلقكِ ولم يعد يريدكِ، لذلك اذهبي من هنا وانتظري ورقة طلاقكِ حالما يخرج من السجن".

لم تكترث شهد لكلماتها بل دفعتها بعنفٍ ودخلت إلى الصالة، أغلقت الباب خلفها بقوةٍ ودون أن تلتفت إلى الوراء. تقدمت نحو الأريكة وجلست وهي تحاول ضبط أنفاسها المتسارعة. في هذه الأثناء، لحقت بها نهى وهي تحاول السيطرة على غضبها المتصاعد.

"هل تظنين أن زياد سيفرح بوجودكِ هنا عندما يعود؟" قالتها نهى بصوتٍ حاد كأنه شفرة مسنونة.

رفعت شهد نظرها إليها ببرود ساخر،

"لا شأن لكِ، ابقي صامتةً ولا تُسمعيني صوتكِ".

ثارت نهى وانفجرت غضباً،

"ماذا تظنين نفسكِ؟ لماذا تتحدثين معي هكذا؟"

لم تُرهب شهد غضبها بل قابلته ببرود وسخرية لاذعة،

"أحدثكِ هكذا لأنكِ أنتِ الخائنة والحقيرة، والتي سأكشف أمرها أمام زياد لكي يعلم أيّة قنبلة تعيش في منزله".

ابتلعت نهى ريقها بتوتر،

"ماذا تقصدين؟" تساءلت بصوت مرتجف.

نهضت شهد ووقفت أمامها، كلماتها كالسهام المسمومة تنطلق من بين شفتيها، "أقصد أنكِ تعاملتِ مع ماهر وتآمرتِ معهُ كي توهموا زياد أنني أخونه وأنتِ من أعطيته الملف كي يُدمّر عمله، أليس كذلك؟"

ارتجف جسد نهى وهي تُنكر بذعر،

"كاذبة!"

صاحت شهد بصوتٍ أعلى،

"بل أنتِ الكاذبة، وسترين ما سيحدث لكِ حالما يخرج زياد، سأُعلمكِ مقامكِ أيتها اللعينة، أنتِ وذاك الحقير".

ودون أن تُضيف كلمة واحدة، استدارت شهد وصعدت إلى غرفتها بخطوات ثابتة حازمة، تاركةً نهى تقف في مكانها مذهولة ومرعوبة، كأن صاعقاً قد ألمّ بها. أسرعت نهى تُمسك هاتفها بيدين مرتجفتين وتطلب رقم ماهر بعجلة، ما إن علم ماهر بما تنويه شهد حتى أسرع إليها.

استقبلت نهى ماهر بنظرة ذعر جامدة، تكاد عيناها تقفزان من محجريهما وهي تلقي عليه كلماتها المتسارعة كأنّها تطلب الغوث:

"ماهر، شهد ستخبر زياد بكل شيء!"

تقدّم ماهر بهدوء واثق وجلس على الأريكة بأريحية مستفزّة:

"وهل سيُصدّقها يا حمقاء؟ ليس لديها أيّ دليل".

تملّك الخوف من نهى فأطرت أظفارها في راحة يدها وهي تُجيب بصوت مرتجف:

"أجل، لكن شهد فظيعة بالإقناع، سيضعف أمامها ويقتنع منها، صدقني".

زفر ماهر بملل وهو يهزّ رأسه بيأس:

"لا تخافي، أنا واثق أنّه حالما يراها سيثور ولن يفتح لها المجال لكي تتحدث حتى".

لم تستطع نهى إخفاء قلقها، فأجابته بريبة واضحة:

"لستُ مطمئنة".

التفت ماهر إليها ونظر في عينيها بضيق:

"أنتِ مملة يا نهى، كفاكِ خوفاً، لا تقلقي، ستكون الأمور كما خطّطنا لها".

وفجأة، كأنّها طيف مخيف ظهر من العدم، هبطت شهد من الطابق العلويّ، وجهها خالٍ من أيّ تعبير سوى نظرة باردة متجمّدة أطلقتها تجاههما وهي تتجاهل وجودهما كليّاً. كان ماهر يراقبها بابتسامة ماكرة على شفتيه، وحينما أصبحت على مقربة منهما، قال بصوت رنان واثق:

"ودّعي هذا المنزل يا شهد، فلن تطول فترة مكوثك هنا".

ابتسمت شهد بسخرية لاذعة:

"أنت حقير، أتعلم ذلك يا ماهر؟"

نهض ماهر من مكانه ووقف أمامها متحدّياً:

"حقير وأحبك كثيراً يا شهدي".

رفعت شهد حاجبيها باستنكار وسخرية:

"شهدي! زوجي زياد لم يقل لي 'شهدي' لكي تأتي أنت وتقولها يا تافه".

أومأ ماهر برأسه بإيجاب وهو يهمهم بكلماته:

"وكأنّه زوجك أصلاً، هل تظنّين أنّني لا أعلم أنّك لم تسلّميه نفسك إلى الآن؟ وهذا لصالحي".

ضمت شهد ذراعيها أمام صدرها ونظرت إليه بحدّة:

"أخبرني يا ماهر، لماذا فعلت ذلك بي وبزياد؟ لماذا أوهمته أنّني أخونه؟"

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفاهه وهو يجيبها بثقة:

"أولاً لأنتقم منك، وثانياً لكي أضمن طلاقك منه وأكسبك أنا".

هزّت شهد رأسها بسخرية:

"وهل تظنّ أنّني سأقبل بشخص حقير مثلك؟"

أجابها ماهر بثقة مطلقة:

"ليس بمزاجك، بل غصباً عنك، ربما أتّبع أسلوب زياد، أطمعك بالأموال وتوافقين عليّ".

سألته شهد بفضول مختلط بالغضب:

"وماذا عن نهى؟ ما مكسبها من هذه العملية؟"

أجابها ببرود:

"تريد زياد طبعاً، لذلك ساعدتني بكلّ شيء، وهي من أعطتني الملف، أجل لقد حذّرتني، فقد أخبرتني ما كنتِ تهددين وتتوعدين به قبل قليل، أنتِ ذكية يا شهد ولكن دائماً أنا سأسبقك بخطوة".

أومأت شهد له بصمت وابتسمت بسخرية باردة، ثم توجهت نحو الطاولة التقطت هاتفها الذي نسيته في الصالة وصعدت إلى غرفتها دون أن تلقي كلمة أخرى. ظلّت أعين نهى وماهر تراقبها بصمت حتى اختفت عن أنظارهما، ثم التفتا إلى بعضهما البعض بنظرة مليئة بالريبة وعدم اليقين.

••

جلست شهد تجتاحها دوامة من التوتر والقلق، كانت تفرقع أصابعها لا شعورياً وهي تحاول ضبط انفعالاتها المتضاربة. كانت في انتظار زياد، تنتظر لحظة الحقيقة، لحظة المواجهة التي ستُحدّد مصير علاقتهما الهشة. تساءلت في داخلها عن ردّة فعله حينما يراها، هل سيغلبه الغضب أم سيتسلّل الشكّ إلى قلبه مجدداً؟

"أنا لستُ مذنبة، يجب أن يُصدقني" كررت شهد في سرها وهي تحاول إقناع نفسها بقوة موقفها. صحيح أنّه شهد غدرها بعينيه، لكنها ستفسّر له الحقيقة، ستُزيل اللثام عن الدسيسة التي حاكها ماهر ونهى لتدمير حياتهما. ستُقنعه ببراءتها، ستُبرهن له أنّها ضحية خطة دنيئة.

تنهدت بضيق وهي تمسح على وجهها بتوتر، كأنّها تمسح هموم السنوات التي مضت، وفجأة سمعت خطوات ثقيلة تقترب من خارج الباب. بدأ قلبها يخفق بعنف كأنّه سيقفز من مكانه، وتفرغ لونها، وشعرت بقطرات العرق تتفشى على جبينها وكفي يديها اللتين أصبحتا باردتين كالثلج.

دخل ولكن ما إن رآها حتى تجمدت ملامحه، كأنّ الزمن توقف لبضع لحظات. ارتسمت على وجهه عبارة غامضة تجمع بين الصدمة والخيبة والغضب، كلّها مشاعر متضاربة تلون قرص وجهه بألوان قاتمة.

كانت شهد تراقبه بعينين حزينتين بريئتين، تحملان في طياتهما كلمات عاجزة عن النطق، كلمات تتوسل إليه أن يُصدقها، أن ينظر إلى ما وراء القناع الذي أفسد صورتها. كانت تعلم أنّ الطريق طويل وشائك لكي تُثبت براءتها، لكنها تتشبث بأضعف الإيمان، بأنّ الحقيقة لا بد أن تتجلى، مهما طال أمد الظلم.

بعد شهرين من العاصفة التي هزّت أركان حياتهم، فتحت نهى الباب ليتجسد أمامها زياد كطيفٍ بارد. لم تُشرق ملامحه بعودته، بل غطّتها غمامةٌ من البرود، وعيناه الحادتان تحملان نظرةً غريبة، خليطٌ من الغضب والحيرة والترقب. تقدم زياد بخطواتٍ ثابتة وصامتة، يشبه تمثالاً منحوتاً من الجليد، تبحث عيناه عنها بشوقٍ دفنه عميقاً تحت رماد خيبة الأمل.

ابتسمت نهى بوهن، تحاول إخفاء ارتجاف نفسها وهي تقول:

"حمداً على سلامتك، كم اشتقت لك". اقتربت منه غريزياً تُريد احتضان دفء غيابه الطويل، لكنه صدّها بحركةٍ باردة من يده، أبعدها عنه وكأنها شيءٌ لا يُريد لمسه. نطق أخيراً بصوتٍ أجشّ خالٍ من أي عاطفة:

"أين شهد؟"

كلماتٌ معدودة، وكأنها حُكمٌ قاسٍ. لم ينطق باسمها إلا متأخراً، وكأنه يُعاقب نفسه قبل أن يُعاقبها. وقبل أن تتمكن نهى من الإجابة، ظهرت شهد من خلفها، تقف أمامه، وشبح ابتسامةٍ بريئةٍ يرتسم على قسمات وجهها. كانت عيناها تلك النافذة لروحها، تتراقصان بالشوق، متحديةً كل الظروف، كل الشكوك، كل المسافات التي فصلتهم.

لم يقترب زياد، وكأن قدميه تُثبتهما الأرض في مكانيهما. لم تُبادر هي بالاقتراب أيضاً، وكأن حاجزاً غير مرئيّ قد وُضع بينهما. ظلّا هكذا لبرهةٍ من الزمن، يتأملان بعضهما بصمت، عليهما غبارُ أيامٍ عصيبةٍ وعتابٌ مؤلم.

اشتاق زياد لتلك النظرات، تلك التي سكنت روحه يوماً ما، تمنى لو يرى فيها بريقَ العشق الذي يحمله لها، لكنه غضّ بصره عنها، عائداً إلى جموده المعتاد.

ساد الصمت المكان لبرهةٍ أخرى، ثم تلعثمت نهى قائلة:

"اا، شهد أصرت على البقاء ريثما تخرج، أخبرتها بأنك لا تُريدها وتريد أن تُطلقها، لكنها لم تُصغِ إليّ".

بدت كلماتها ضعيفةً هزيلة، لا تُشبه تلك التي نطقت بها يوماً وهي تُحيك خيوط مؤامرتها. نظر إليها زياد ببرودٍ قاتل، وقال بصوتٍ خالٍ من أي عاطفة:

"اتّصلي بماهر لكي يأتي".

ارتبكت نهى، وقالت بصوتٍ مُرتجف:

"وما شأن ماهر بالموضوع؟"

لم يُعر زياد كلماتها أيّ اهتمام، وأعاد طلبه بجمود:

"قلت اتّصلي به فقط".

ابتلعت ريقها بصعوبة، وقالت بصوتٍ مُرتجف:

"إن كنت تُريده، فاطلبه أنت. أنا لا يوجد بيني وبينه أيّ اتصالات".

ارتسمت على شفتي زياد ابتسامةٌ ساخرة، وكأنه يُدرك ما تُخفيه وراء كلماتها المتلعثمة. فقال ببرودٍ:

"اتّصلي به لكي يأتي، هيا".

أومأت نهى برأسها بصمت، وأطاعت أوامره وهي تتساءل في حيرةٍ عن سبب طلبه الغريب هذا. لم يتأخر ماهر، وكأنه كان ينتظر تلك المكالمة، ووصل بعد فترةٍ وجيزة، هادئ الملامح، لكن عينيه تُخفيان بركاناً من الغضب على وشك الانفجار.

جلس الأربعة في صمتٍ ثقيل، كأن جدران الغرفة تُطبق عليهم ببطء. نهى تكاد تُمزقها النيران من شدّة الخوف، ماهر يخفي وراء هدوئه عاصفةً هوجاء من الغضب والحقد، زياد لا تُغادر البرودة ملامحه، وشهد تراقب المشهد بصمت، قلبها يدقّ بعنف، تنتظر ما ستُسفر عنه الأقدار.

بعد دقائق من الصمت المُطبق، وجه زياد حديثه إلى شهد قائلاً:

"اذهبي واحضري هاتفك يا شهد".

أومأت شهد بصمت، وغادرت الغرفة لثوانٍ ثم عادت وبيدها هاتفها. سلمته الهاتف، ثم عادت لتجلس في مكانها، تُراقب زياد وهو يُقلّب في هاتفها، ثم يقوم بتشغيل تسجيلٍ صوتي يعود لتلك الجلسة التي جمعت بين شهد وماهر ونهى.

كانت شهد قد وضعت هاتفها في الصالة ذلك اليوم عندما عادت إلى منزل زياد، وكانت تعلم بعد حديثها مع نهى أنها ستتّصل بماهر وتطلب قدومه. لذلك قامت بتشغيل مُسجّل الصوت وتركت هاتفها في الصالة، وبينما هي

تُصغي إلى حديثهم من بعيد، كان الهاتف يُسجّل كلّ كلمة. استغلت شهد الفرصة، وحاولت دفع نهى وماهر إلى الحديث عن اتّهامها بالخيانة لتوقع بهما، فلم تجد غير تلك الطريقة لإثبات براءتها أمام زياد.

استمع الجميع إلى التسجيل بصمتٍ مُطبق. بدأت ملامح القلق تظهر على ماهر، بينما انهارت نهى باكيةً، يرتجف جسدها من شدّة الخوف. كان زياد يُراقب المشهد ببرودٍ مُخيف.

أوقف زياد التسجيل، وقال بصوتٍ هادئٍ مُخيف:

"يفترض أن أنهض الآن وأحطم رأس ماهر، وأدخله إلى المستشفى، لكنني لا أنوي العودة إلى السجن. ويفترض بي أيضاً أن أُطلّق نهى وأطردها خارج منزلي، لكن شهد رغم كلّ ما فعلتيه بها، طلبت مني ألا أفعل ذلك كي لا تعودي لظلم أخوتك. لذلك.."

صمت قليلاً، ينظر إلى شهد التي كانت تتابع الموقف بجمودٍ غريب، وكأنها تُشاهد مسرحيةً لا تمثّل لها أي دور. التقت عيناهما لبرهةٍ قصيرة، وكأنه يبحث في نظرتها عن موافقةٍ ضمنيةٍ على ما سيقوله. ثمّ أعلن حُكمه بصوتٍ هادئٍ لكنه كان أقوى من ألف عاصفة:

"نهى ستخرج من المنزل، وستسكن في منزلٍ بمفردها، ولن تريني وجهها إلى آخر العمر. وكلّ شيءٍ ينقصك سيصلك، فقط لا تتدخّلي بحياتي، ولا تريني وجهك".

انهارت نهى كلياً عند سماع كلماته. انهارت كلّ الأقنعة التي اختبأت خلفها، وظهرت حقيقتها الهشّة المرتجفة. انهارت دموعها على خديها الملطخة بالخوف والندم، وتوسلت إليه بصوتٍ مختنقٍ بالبكاء:

"أرجوك، أرجوك لا! سامحني أرجوك! ماهر هو من غرّر بي، وأراد أن يفعل كلّ ذلك لكي يكسب شهد، صدقني! أنا لا ذنب لي! أبقني في منزلك، أرجوك يا زياد!".

لكن زياد لم يُبدِ أيّ ردّة فعلٍ تجاه كلامها المتوسّل أو دموعها الحارة. كانت كلماته قد سُطّرت بقلمٍ من جليدٍ، لا يمكن لأيّ دمعةٍ أن تمحوها. أكمل حديثه بصوتٍ حازم، يُخاطب ماهر الآن:

"بالنسبة لك يا ماهر، ستعلم العائلة بما فعلت، وستُطرد من رعاية العائلة، ولن يكون لك أيّ شيء. أعلم كيف أوصل ما فعلته بحيث أجعلك منبوذاً لدى الجميع، وستبتعد عني وعن زوجتي، ولن تريني وجهك بعد الآن".

نظر ماهر إلى زياد ببرودٍ متحدّياً، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ ساخرةٌ مُرّة. كان على وشكّ الحديث، لكنه تراجع، وكأنه أدرك أنّ الكلمات لا فائدة منها الآن.

أكمل زياد حديثه، وكأنه يُريد أن يُنهي ذلك المشهد المُؤلم بأسرع وقتٍ ممكن:

"يفترض بي أن تكون ردّة فعلي جنونية، أن أقتل ماهر مثلاً، أو أُسبّب له عاهةً مُستديمة، أو أقتل ذلك الرجل الذي يُدعى سعيد. لكن لا تقلقا، ذلك الرجل أصبح في السجن ولن يخرج قبل سنوات. ويفترض بي أيضاً أن أُطلّق نهى، وأعيدها إلى عذابها. ويفترض أن أحزن على ما سبّبتماه لي من خسائر في الشركة بسبب لعبتكما مع عادل. لكنني لن أفعل كلّ ذلك".

توقّفت كلماته فجأةً، تاركةً صمتاً ثقيلاً يحمل في طياته ألف سؤالٍ وسؤال. كان ماهر ونهى يتابعان حديثه بمشاعرَ مُشتتة. نهى تُشبه ورقةً هزيلةً تتقاذفها أمواج البكاء والندم، بينما يكاد ماهر ينفجر من شدة الغضب والحنق، يشعر بمرارة الخسارة في كل شيء: العائلة، الحبيبة، العمل، الحياة.

أكمل زياد حديثه، لكنه كان يُخاطب نفسه هذه المرة، وكأنه يُبرر قراره:

"ببساطة لأنّكما كنتما السبب في قرب شهد مني، وفي كسر الكثير من الحواجز التي كانت بيننا. وبالنسبة لخسارتي في الشركة، فأنا لم أخسر، بل على العكس، حتى وأنا في السجن، كان هناك من يعمل بجدّ لكي أعوّض كلّ الخسائر. والأهم أنّني لم أخسر شهد".

نظر إلى شهد، وكأنه يستمدّ قوّته من صمتها، من نظرتها التي لا يستطيع تفسيرها. أكمل حديثه، وصوته خليطٌ من الثبات والحزن:

"لم أترك نفسي لغضبي، واستمعت لها، وأعطيتها فرصةً لكي تُبرر لي، وقد كان أنا المنتصر في هذه المعركة".

ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ خفيفةٌ وهو يتابع:

"ولولا شهد لكنت تصرفت معكما غير ذلك، لكن يكفيني تلك الكلمة التي قالتها لي عندما كنت في السجن، أنها لا تُريد خسارتي. ولن أُضيّع وقتي في الانتقام منكما، أو الالتفات إليكما حتى، أظنّ أنّ هذا أفضلّ شيءٍ سأفعله".

بدا زياد كرجلٍ أنهكه التعب، رجلٌ اختار السلام على الحرب، واختار أن يُنفق طاقته في الحفاظ على ما تبقى له من حياةٍ، بدلاً من إهدارها في دوامةٍ من الانتقام التي لا تنتهي.

صمت لبرهة، ينظر إلى ماهر ونهى بنظرتين مختلفتين لكنهما تحملان نفس الرسالة: النهاية. بدا صوته كفحيح ثعبان ينذر بالخطر، بارداً وقاطعاً، وهو يقول: "انتهى الأمر. اخرجا من منزلي ومن حياتي للأبد." التفت إلى نهى بنظرة قاسية: "اصعدي إلى الأعلى ووضبي أغراضك، ولن أتردد لحظة في إلقائها في الشارع إن لم تكوني قد جهزتي نفسكِ." ثم أدار وجهه إلى ماهر: "أما أنت، فأظن أنك تعرف طريق الباب جيداً."

لم ينتظر ردّهما، بل خرج من الصالة بخطوات سريعة، كمن يفر من شبح يطارده. وترك خلفه صمتاً ثقيلاً كئيباً يخنق الأنفاس. بقيت شهد جالسة في مكانها، منصاعة لجُمود غريب، وكأنها تمثال من رخام لا تحركه عاصفة ولا تهزه رياح.

تنهد ماهر بمرارة، وألقى عليها نظرة طويلة مليئة بالغضب والقهر. خرج من المنزل بخطوات بطيئة مرهقة، وكأنه يشعر بثقل الهزيمة على كاهله.

انهارت نهى في نوبة بكاء هستيرية، جلست على الأرض كطفلة ضائعة، وتتوجه نحو شهد تقبل يديها بانكسار:

"أرجوك يا شهد، لا تتركيني، أنا نادمة على كل شيء، سأكون خادمة لكما، سأفعل أي شيء تطلبينه مني، فقط لا تدعي زياد يطردني."

رفعت شهد وجهها ببطء، وتأملت نهى بنظرة خالية من أي عاطفة، كأنها تنظر إلى غريبة لا تعرفها. قالت بصوت متعب:

"لقد تحدثت معه يا نهى، وقراره نهائي، لن يتراجع عنه. يكفي أنه لم يطلقك ولم يعيدك إلى جحيم إخوتك. فهذا أقصى ما استطعت إقناعه به."

لم تستطع نهى تصديق ما تسمعه، وتساءلت بينها وبين نفسها كيف تحولت شهد إلى هذا الشكل؟ كيف أصبحت باردة قاسية إلى هذه الدرجة؟ ألم يكن بينهما يوماً ما شيء من صداقة أو أخوة؟

نهضت شهد من مكانها واتجهت نحو غرفة زياد، خطواتها هادئة ثابتة، وكأنها تتجه نحو معركة تعرف أنها ستخوضها بمفردها.

وجدته مستلقياً على السرير، يُحدق في السقف بنظرات شاردة، غارقاً في أفكاره المظلمة. اقتربت منه وجلست على حافة السرير، تراقبه بصمت لفترة طويلة، ثم سألته بصوت خافت يكاد يُسمع:

"هل أنت متأكد من قرارك بشأن نهى؟"

التفت زياد إليها ببطء، ونظر في عيونها بحثتً عن شيء معين لم يجده، ثم أجابها بصوت متعب:

"نعم، متأكد. وجودها في المنزل أصبح مستحيلاً، هي تذكرني بكل ما حدث، بكل الألم والخيانة التي تعرضت لها."

"لكنها نادمة يا زياد، إنها تحبك حقاً."

"الحب لا يكفي يا شهد، هناك جروح لا ينفع معها سوى البُعد."

أطرقت شهد برأسها حزينة، لم تُجادله أكثر من ذلك، كانت تدرك أنه قد تعذب كثيراً بسببها، وكان يحتاج إلى وقت لكي ينسى وينجو من جروحه. نهضت من مكانها قاصدة الخروج من الغرفة، لكنه أمسك بيدها بقوة، يجذبها نحوه حتى سقطت بجانبه على السرير.

نظر إليها بعمق قائلاً بصوت مرهق:

"أنا بحاجة إليك الآن يا شهد، لا تبتعدي عني."

لم تُجبه، لكنها أحاطت عنقه بذراعيها وضمّته إليها بقوة، وكأنها تريد أن تعطيه شيئاً من الدفء والأمان الذي افتقده. مال زياد نحوها وقبّل شعرها بحنان، همس بصوت متقطع:

"سامحيني يا شهد، لقد ظلمتك كثيراً."

لم تنظر له، بل بقيت عيناها مثبتتين على نقطة غير مرئية أمامها. لم تُجب بكلمة واحدة، وكأنها قد فقدت القدرة على الكلام، أو ربما القدرة على الشعور نفسه. غُلّفت ملامحها بقناع من البؤس والإنهاك، وكأنها روح مرهقة تسكن جسداً أنهكه التعب.

رفع زياد وجهها بين كفيه بحنان مختلط بالذنب. تأمل عيونها ورأى في أعماقهما بحراً هائجاً من المشاعر المتضاربة التي لا يستطيع فك شيفرتها. مال نحوها ببطء، وكأنه يطلب الإذن بدخول عالمها المغلف بالحزن والصمت.

لامست شفاهه شفتيها في قبلة كانت أقرب إلى الاعتذار منها إلى العشق. قبلة كان يريد منها أن تمحي كل آثار الألم والغضب التي رسمتها الأيام على وجهها. تسللت قبلته إلى أعماق روحها، تحاول إيقاظ براكين العشق التي خمدت في قلبها.

تعمق في قبلته تاركاً لعطشه وحاجته إليها أن تتحدث باسمه. بدأت يداه تتحركان على جسدها برقة وحذر، وكأنه يخشى أن يفزع طائر مذعور حط على صدره للحظات. شعر برجفة خفيفة تسري في جسدها، لم يدري إن كانت رجفة خوف أم اشتياق.

اشتعلت نيران الرغبة في داخله، فأصبح أشبه بمقامر فقد كل شيء ولا يملك سوى رمية نرد أخيرة. ضمها إليه أكثر، وهمس بصوت أجش:

"أحبك يا شهد، أحبك بجنون."

لكن كلماته لم تحدث التأثير الذي كان يتمناه. ظلت شهد ساكنة بين يديه، لا تقاوم ولا تستجيب، وكأنها تحولت إلى تمثال من ثلج لا يذوب. شعر بصدمة باردة تجتاحه، صدمة أشد وقعاً من كل ما تعرض له في السابق. أبعدها عنه ببطء، وكأنه يعيد طفلاً نائماً إلى مهده، ثم نهض من جانبها وهو يشعر بثقل هائل على صدره.

فرّت شهد من الغرفة كغزالة مذعورة، تاركة وراءها رائحة عطرها التي أشعلت في قلبه ناراً لن يطفئها سوى الزمن.

وغادرت نهى منزل زياد، حاملةً معها حقيبة مليئة بثياب وأشياء مادية لا تثمن ولا تغني من جوع قلب محطم. كانت خطواتها ثقيلة على الأرض، وكأنها تجر وراءها سلاسل من الذكريات الموجعة. خرجت من عالمهما كما دخلتْه: بهدوء مريب، تاركةً خلفها أصداء صوت بكائها ورائحة هزيمتها.

أما ماهر، فقد اختفى من حياتيهما كما يختفي السراب في الصحراء. لم يُعلن هزيمته، بل رحل وكبرياؤه الجريح يشكل له درعاً من الوهم. في عقله المتخبط بين الغضب والرغبة في الانتقام، كان يخطط للعودة، لإثبات أنه ليس بالشخص الذي يُهزم بسهولة. ظلت فكرة الانتقام تراوده كشبح لا يفارقه، تُغذيها نيران غيرة أحرقت أخضر قلبه ويابسه.

وبينما كانت أشباح الماضي تتلاشى في الأفق، انطلق زياد وشهد في رحلة جديدة، رحلة طريقها معبد بحب متأجج وصبر لا ينضب. كان زياد حريصاً على أن يُنسيها كل ما تعرضت له من ألم وخيبة، كان يريدها أن تراه كما هو حقاً: رجلاً يحبها بجنون ويقدسها.

من جانبها، كانت شهد لا تزال تصارع أشباح شكوكها ومخاوفها، لكن حب زياد وصبره كانا يشكلان لها ملاذاً آمناً من عاصفة مشاعرها المتناقضة. كانت كزهرة ذابلة أعاد الحياة إلى أوراقها ندى عطفه وحنانه.

بدأت رحلة تمرد صامت من شهد، تمرد على كل ما يقيّدها ويحاول أن يسرق منها فرحة الحب والسعادة. وكانت نيران عشق زياد وصبره هما الوقود الذي يغذي نار هذا التمرد، ناراً ستحرق كل شك وخوف وتضيء لهما طريق المستقبل.

.....

استيقظت شهد على لمسةٍ ناعمةٍ تسربت بين خصلات شعرها كنسيمٍ دافئ يهبّ في صباح ربيعي. فتحت عينيها ببطء لتجد زياد أمامها، وجهه مشرق بابتسامةٍ ناعمةٍ تذيب جليد قلبها.

"صباح الخير يا حلوتي"، همس زياد مقترباً منها ليقبّل جبهتها قبلةً خفيفة. "هيا انهضي، لقد أعددتُ لكِ الفطور."

اعتدلت شهد في فراشها، تفرك عينيها بكفّيها بنعاسٍ طفوليّ قائلةً:

"أنتَ من أعدّ الفطور؟ منذُ متى وأنتَ تُجيدُ ذلك؟"

ارتسمت على محيا زياد ابتسامةٌ فخورة وهو يجيبها:

"لا شيء يُعجزني يا عزيزتي، خاصةً إن كان من أجلكِ."

نهضت شهد من الفراش ببطء، لا تُصدق بعدُ أن زياد، الذي لم يدخل المطبخ يوماً في حياتهما السابقة، قد فاجأها بهذه اللفتةِ الرقيقة.

"لا تُصدّقيني إلى هذه الدرجة"، قال زياد وهو يُراقب دهشتها بابتسامة. "سأُدلّكِ على مواهب خفية كثيرة في نفسي، فقط انتظري وسترين."

ابتسمت شهد بخجل، وتوجّهت إلى الحمام لتقضي روتينها الصباحي، بينما بقي زياد في الغرفة، يتأمّل انعكاس ابتسامتها في أرجاء غرفتهما، وكأنها ضوءٌ أشرق ليبدد ظلمة سنين.

بعد قليل، انضمت شهد إلى زياد على مائدةِ الفطور التي بدت هي الأخرى مختلفةً عما اعتادته. مفارشٌ جديدةٌ أنيقة، ورودٌ طبيعيةٌ تُضفي على المكان ألقاً ورونقاً خاصّاً، ورائحة قهوةٍ طازجة تملأ الأجواء.

بادلها زياد الابتسامة وهو يشير إلى الكرسيّ المقابل له،

"تفضّلي يا أميرتي."

جلست شهد وهي تُراقب كل التفاصيل التي تدل على أن زياد يبذل جهداً كبيراً ليُشعرها بالسعادة. تناولا الفطور بصمتٍ مريح، كلٌ منهما غارقٌ في أفكاره ومشاعره، لكنه صمتٌ مختلفٌ عما كانا يعيشان في السابق. لم يعد صمتاً بارداً قائماً على الجفاء والإنكار، بل كان صمتاً دافئاً ينبع من شعورٍ عميقٍ بالألفة والتفاهم.

"شهد"، قال زياد فجأةً، ليُخرِجها من شرودها.

"نعم؟" أجابته شهد رافعةً نظرها إليه.

"أُريد أن أدعوكِ إلى سهرةٍ خاصةٍ هذا المساء، سهرةً رومانسيةً لنا فقط. ما رأيكِ؟"

رفعت شهد حاجبيها باستغرابٍ قائلةً:

"سهرة ماذا؟"

ابتسم زياد قائلاً:

"سهرة عشاءٍ على ضوء الشموع، نرقص سوياً، نتحدّث وننسى كل شيءٍ سوى أنفسنا. هل تُوافِقين؟"

لم تستطع شهد حبس ابتسامةٍ خجولةٍ ارتسمت على محياها، أومأت برأسها مُجيبة:

"أعتقد أنني لا أملك خياراً سوى الموافقة على عرضك الجميل هذا".

ضحك زياد وانفرجت أساريره، وقال وهو يمدّ يده ليُلامس يدها على الطاولة: "هذا أفضل خبرٍ أسمعه اليوم."

أكملا وجبة الفطور في أجواءٍ من السعادة والأمل، وكأن شمساً جديدةً قد أشرقت في سماء حياتهما، شمسٌ تُبشّر ببدايةٍ جديدةٍ حافلةٍ بالحبّ والسعادة.

في تلك الليلة، وفي قلب مطعم فخم أزيد فيه كل تفصيل ليضفي على الأجواء سحراً ورونقاً خاصاً، جلس زياد وشهد على مائدة مستديرة صغيرة تتوسط قاعة شبه خالية. أحاطت بهما أضواء خافتة تنبعث من ثريات كريستالية باهظة، وشموع مرصعة على الطاولات المجاورة الفارغة، تلقي بظلالها الراقصة على ملامحهما. كان المكان أشبه بعلبة مجوهرات ثمينة صُمّمت خصيصاً لهما ليحتفلا بليلة استثنائية بعيداً عن أعين الفضوليين.

بدت شهد في غاية الجمال بفستان ساحر أبرز أنوثتها ورقتها. ابتسم زياد وهو يتأملها بإعجاب وفخر، وكأنه يراها لأول مرة. كانت فتنة تجلس أمامه، تضيء المكان بجمالها ورونقها.

مد يده نحوها وقال بصوت رقيق:

"أتسمحين لي بهذه الرقصة يا أميرتي؟"

أومأت شهد بخجل، فأمسك بيدها ورفعها بلطف ليرافقها إلى منتصف القاعة الفارغة حيث كانت أنغام موسيقى هادئة تُعزف خصيصاً لهما.

بينما كانا يتمايلان على أنغام الموسيقى، كانت عيون زياد تُغرق في بحر عيون شهد التي كانت تُحاول إخفاء ارتباكها بنظرات خجولة إلى الأرض. مال زياد برأسه نحوها وهمس في أذنها:

"أحبك يا شهد، من أعماق قلبي."

ارتسمت على شفاه شهد ابتسامة خفيفة وهي تُجيبه:

"أعلم ذلك، لقد أخبرتني من ذي قبل."

ابتسم زياد بحنان وقال:

"وماذا عنكِ يا شهد، هل ما زال قلبك مغلقاً؟"

رفعت شهد نظرها إليه ببطء قائلة:

"ماذا تقصد؟ لم أعد أفهمك."

أجابها زياد بصوت هادئ رغم أن نبرة ترقب واضحة فيه:

"أقصد، هل تشعرين بشيء نحوي، ولو بقدر ذرة صغيرة؟"

أطرقت شهد برأسها مجدداً:

"أعتقد أننا اتفقنا على أن تُعطيني بعض الوقت، أليس كذلك؟"

"بلى، ولكنّ الوقت يمرّ، وشوقي لكِ يزداد يوماً بعد يوم، أخشى أن يُنهكني الانتظار."

"لا تقلق"، قالت شهد محاولةً تهدئة مخاوفه، "أنا لا أنكر أنني بدأت أشعر بشيء نحوك، لكني لا أريد التسرع، أريد أن أتأكد من مشاعري جيداً قبل الإفصاح عنها."

أوقفها زياد عن الكلام قائلاً:

"إلى متى هذا التأجيل يا شهد؟ إلى متى ستُبقينني رهين شكي وخوفي؟"

رفعت شهد نظرها إليه بجدية وهي تقول:

"إلى أن أشعر بالأمان والثقة الكاملة بأن ما بيننا حقيقي وقوي كفاية ليُواجه عواصف الحياة. حينها لن أتردد لحظة واحدة في الإفصاح عن كل ما يُخبّئه قلبي."

"أخشى أن يكون ذلك متأخراً جداً"، قال زياد وهو ينظر إليها بنظرة متوسلة.

"لا تخف، فأنا لا أريد سوى سعادتك، وسعادتي لا تكتمل إلا بقربك."

"أعدكِ أنني سأنتظركِ يا شهد، سأنتظركِ ولو طال الزمن، لكنني لا أضمن لكِ أن صبر نيران عشقي ستظل هادئة دائماً، فقد يحين الوقت الذي تفور فيه وتحرق كل شيء حولها."

ضحكت شهد بخفة وهي تُقرب رأسها منه قائلة:

"لا بأس، فالنار التي تُحرق أحياناً تُنير الطريق وتُدفئ القلوب."

احتضنها زياد بقوة وكأنه يُريد أن يُخبئها بين ضلوعه، همس في أذنها بصوت مختنق بالعشق:

"أعشقك يا شهد، أعشقك بجنون."

بادلته شهد العناق بحرارة وهي تشعر أن قلبها قد بدأ يستسلم لنداءات الحب الصادقة التي تُسمع لأول مرة في حياتها.

*

بعد أن أنهيا رقصتهما، عادا إلى طاولتهما ليُكملا عشاءهما في أجواءٍ هادئة. كان صمتٌ مريحٌ يسود المكان، صمتٌ تُزيّنه ابتساماتٌ خفيفةٌ تُعلن عن سعادةٍ داخليةٍ تُغلف قلبيهما.

"شهد،" قال زياد فجأةً ليكسر ذلك الصمت.

رفعت شهد نظرها إليه مستفسرةً: "نعم؟"

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يُكمل حديثه:

"هناك سؤالٌ يُلحّ عليّ منذ زمن، سؤالٌ عن تلك الليلة التي تغيّر فيها كل شيء."

وضعت شهد شوكة طعامها على طرف الصحن ونظرت إليه بانتباه، تتوقّع ما سيقوله.

"أريد أن أعرف،" أكمل زياد بصوتٍ منخفضٍ: "ألم تخافي من مواجهتي عندما أتيتِ إلى السجن؟ أعلم أنني كنت أبدو كثورٍ هائجٍ يومها، وأنّ الغضب قد أعمى عينيّ عن رؤية الحقيقة."

"بلى، لقد كنت خائفةً جداً،" أجابت شهد بصراحة. "بل مرعوبة، كنت أعلم مدى غضبك وجنونك، وكنت أخشى ردة فعلك عندما تراني. ولكن..."

توقّفت شهد عن الكلام لحظةً قبل أن تُكمل بصوتٍ واثق:

"ولكنني كنت أعلم أيضاً أنّني بريئة، وأنّ براءتي لن تظهر إلا إذا سمعت الحقيقة منّي أنا. كنت على يقينٍ بأنّك ستُطلّقني في النهاية، لكنني لم أكن أريد أن تُطلّقني وأنت تعتقد أنّني خائنة."

"لقد كان قراري بالتخلّي عن كل شيءٍ نهائيًاً، عنك، عن حياتي السابقة بأكملها. كنت أريد الابتعاد والتخلّص من كل الألم والذكرياتِ المؤلمة. ولكن..."

"ولكن ماذا؟" سأل زياد بفضول.

"عندما سمعتُ كلامي في السجن، عندما طلبتَ منك أن لا أُؤذي ماهر أو نهى، شعرت بأنّ هناك شيئاً ما قد تغيّر فيك. لم تعد ذلك الرجل الذي استسلم للغضب والانتقام، بل بدوت أكثر تعقّلاً ونضجاً. وهذا ما جعلني أُعيد النظر في قراري وأُفكّر في إمكانيةِ العودة."

"ولكنّكِ وضعتِ شروطاً صعبةً جداً" قال زياد بابتسامةٍ مُرّة.

ضحكت شهد بخفةٍ،

"ربّما لأنّني كنت خائفةً، خائفةً من أن أُجرح من جديد. ولكنّك يا زياد أثبتّ لي أنّك تستحق المُخاطرة، وأنّ حبّك لي يستطيع أن يُنسيني كل ما مررت به من ألم."

نظر زياد إليها بعشقٍ وهو يمسك بيدها ويُقبّلها بحنانٍ:

"أعدكِ يا شهد أنّني سأبذل كل ما في وسعي لأُسعدكِ، ولأجعلكِ تنسين كل لحظةٍ سيئةٍ مررت بها في حياتك."

"أعلم ذلك," قالت شهد وهي تُبادله النظرة بحبٍّ صادق.

ساد صمتٌ مريحٌ بينهما من جديد، صمتٌ هذه المرّة كان مليئاً بوعودٍ صادقةٍ ومشاعر نبيلةٍ تُنبئ عن حياةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالسعادة والحبّ.

ولكن فجأةً، وكأنّه تذكّر شيئاً ما، سأل زياد:

"شهد، هناك سؤالٌ أريد أن أسأله لكِ بصراحةٍ تامة، سؤالٌ قد يبدو لكِ غريبًا بعض الشيء."

"ما هو؟" قالت شهد وهي تُحسّ بنبرة جديةٍ في صوته.

"لو أنّكِ تطلّقتِ مني يومها، هل كنتِ ستتزوجين ماهر؟"

تغيّرت ملامح شهد في لحظة، وتحوّلت نظرة الحب في عيونها إلى نظرةٍ باردةٍ قاسية. سحبت يدها من يده ببطءٍ وهي تقول:

"ماهر؟ وهل ما زال هناك مكانٌ له في حياتي بعد كل ما حدث؟ أظن أنّني كنت واضحةً جداً في إجابتي عندما سألتني ذلك السؤال في السجن، أم أنّ ذاكرتك قد خانَتك؟"

شعر زياد بالندم لأنه فتح هذا الباب، حاول أن يُلطّف الأجواء قائلاً:

"أعرف، أعرف، أنا آسف، فقط كنت أريد أن أتأكّد."

"لا داعي للتأكّد من شيءٍ قد انتهى بالفعل," قالت شهد بصوتٍ حازم.

"أرجوك زياد، لا تُفسد هذه الليلة بإعادة إحياء أشباح الماضي."

وقف زياد من مكانه وقال:

"حسناً حبيبتي، كما تريدين، لن أتحدّث في هذا الموضوعِ بعد الآن. هل نذهب الآن؟ يبدو أنّكِ متعبة."

أومأت شهد برأسها صامتة، ثمّ نهضت من مكانها واتّجهت نحو الخارج، تاركة زياد يُسدد الفاتورة بحسرةٍ، ويتبعها بخُطىً ثقيلة، نادماً على سؤالِهِ الذي أفسد عليهما سهرتهما الرومانسية.

....

دخلت شهد المنزل كعاصفة هوجاء، خطواتها الغاضبة تهز أركان المكان. لم تتكبد عناء إغلاق الباب بهدوء، بل صفعت الباب خلفها بقوة تُعلن عن ثورة بركان في داخلها. تنهد زياد بحنق، يلعن نفسه آلاف المرات على سؤاله الأحمق الذي أفسد عليهما ليلة كان من الممكن أن تكون مثالية.

صعد إلى غرفته وهو يشعر بثقل خطواته، خلع سترته وقميصه بعنف ورماهما على السرير، كأنما يتخلص من عبء ثقيل على صدره. وفجأة، وبلا مقدمات، انفتح الباب على مصراعيه، لتدخل شهد كالنار التي تبحث عن قش لتحرقه.

ارتبكت شهد لثانية عندما وجدت زياد بهذا الشكل، صدره العاري ينبض غضباً أمامها. زاغ بصرها بينما كانت أناملها تتلوى بتوتر. استعادت شهد توازنها بسرعة، لتطلق وابلاً من الكلام كرصاصات تصيب قلبه في الصميم:

"ألا تعتقد يا زياد أنه من الواجب التفكير قبل إطلاق الكلام على عاتقه؟ لقد حولت سهرتنا إلى معركة بسؤال واحد! هل ما زال ماهر يطارد أفكارك برغم كل شيء؟ ألم يكن موقفي واضحاً بقدر كافٍ؟ ألم تسمع إجابتي له في ذلك التسجيل البائس؟ ثم تُعاتبني لأنني أطلب مهلةً لأرتب بها أفكاري ومشاعري! هل أنا مطالبة بنسيان كل شيء بكبسة زر؟"

توقفت شهد لتلتقط أنفاسها، وكأنها تدرك لتوها قسوة كلامها، غير أن الغضب الذي كان يعتمل في صدرها لم يَخمد بعد:

"هل نسيّت يا زياد كيف أرغمتني على هذا الزواج؟ كيف طعنتني بزواجك من أخرى؟ كيف مزّقت قلبي بغير رحمة أو شفقة؟ صدّقت في الخيانة وأنا التي ما عرفت سواك رجلاً. فهل بعد كل هذا العصف أُلام لأنني أحتاج إلى مهلة أعيد فيها ترتيب حياتي ومشاعري؟ أحاول فيها مداواة جراح ما زالت تنزف ألماً؟"

كان زياد يراقبها ببرود وهي تلقي كلماتها كصفعات على وجهه، غير أن صبره قد نفد عندما لمسَت كرامته:

"وماذا فعلتُ أنا يا شهد؟ سألتكِ سؤالاً بسيطاً، بل واعتذرتُ عنه! كنتُ أريد الطمأنينة فقط! لماذا هذا الغضب العارم؟ أرى أنكِ عدتِ إلى تهورك وغضبك الذي لا ينتهي!"

"بل أنتَ من عاد لسلوكه الذي لا يُطاق، سلوك الغضب والتسرع والاتهامات الجائرة!" قالتها شهد باندفاع حانق، ثم أردفت بصوت حازم: "تصبح على خير."

خرجت شهد من الغرفة بغضب عاصف، صفعت الباب خلفها مرة أخرى، لتعلن نهاية جولة أخرى من جولات صراعهما المستمر. رمى زياد بنفسه على السرير، أسيراً لغضبه وإحباطه. ضرب بقبضته على وسادته بقوة مفرغاً عن غضبه المتأجج، وهو يدرك في قرارة نفسه أن الطريق أمامهم ما زال طويلاً وشاقاً ليصلا إلى بر الأمان.

.....

عند الساعة الثالثة فجراً، وبينما كان الليل يُرخي سدوله على العالم، كانت شهد تقف أمام غرفة زياد، كأنها تقف أمام مفترق طرق. قلبها يُمزّقه الندم على كلماتها الجارحة، وعقلها يُحذّرها من التسرّع. خاضت حرباً ضارية مع نفسها، تارةً تُعاتبها على تهوّرها، وتارةً تُشجّعها على اتخاذ خطوة نحو المصالحة.

"يا لِغبائي!" همست شهد لنفسها بصوتٍ مختنق. "لماذا أطلقتُ العنان لغضبي؟ كيف سأُصلح ما أفسدته يد الحماقة؟ زياد لئيم وأحمق وليس بذلك الرجل الذي يُغفر الإهانة بسهولة، سيظل حزيناً وغاضباً مني لأيام وأيام..."

نفخت شهد خديها بحنق، وضربت بقدمها الأرض كأنها تُعاقب نفسها على تصرفاتها الطائشة: "أنتِ حقّاً غبية يا شهد! ألم يحِن الوقت بعد لتتخلّصي من ذلك الغرور اللعين؟ ألم تكفيكِ معارك الماضي مع نهى وماهر؟ ألا تستحقين بعض السعادة والهدوء مع الرجل الذي أحببتيه؟"

وفجأةً، وكأنّ الأرض انشقت لتُخرج لها زياد من باطنها، شعرت بيدٍ تحيط بخصرها من الخلف. التفتت شهد بخوف، لتجد زياد يقف أمامها، ملامحه جامدة لا توحي بشيء:

"هل أصابني الجنون فصرت أسمع كلامكِ، أم أنكِ حقّاً تُخاطبين نفسكِ على باب غرفتي في هذه الساعة المتأخرة؟"

ارتبكت شهد، وتلعثمت كلماتها وهي تُحاول تبرير موقفها:

"لا، لا، أنا... كنتُ... فقط... كنتُ أتحدّث مع... أعني... نعم، لقد جننتُ!"

أطلقت شهد تلك الجملة الأخيرة بنبرة طفولية ساذجة، لتُرسم على شفتي زياد ابتسامة رغماً عنه. اقترب منها ببطء، وهمس في أذنها:

"مع من كنتِ تتحدّثين يا ترى؟"

"م، مع أحد، لِما تُريد أن تعرف؟" قالتها شهد بتوتّر وهي تُحاول الابتعاد عنه.

"لعلي وفقتُ حينما دَبّت قدمايّ نحو الصالة، باحثاً عن بعض العزلةِ بعد أن أثقلتْ كلماتٌ قاسيةٌ نُطقتْ بها فتاةٌ طائشةٌ قلبي المُثقل أصلاً. فإذا بي أسمعُ همسَكِ عند عتبةِ غرفتي كأنّ القدرَ أرادَ لي ألاّ أغرقَ في بحرِ وحدتي هذه الليلة." قالها زياد بنبرة هادئة، ثم أضاف بمكر: "ألم تُنهي حديثكِ بعد مع ذلك الشخص؟"

أدركت شهد أنها قد وقعت في الفخ، فأطرقت برأسها خجلًا:

"لقد كنتُ أتحدّث مع نفسي."

"وهل سمحتِ لنفسكِ أن تُطلقَ عليّ تلك الأوصاف الجارحة؟" سألها زياد وهو يُحاول التماسك.

"أي أوصاف؟ أنا لم أذكر أحداً بسوء."

"أحقاً؟" قالها زياد بسخرية مريرة. "وهل تُعدّين كلمة 'أحمق' وكلمة 'لئيم' من الكلمات الطيبة التي تُطلقينها على من تحبين؟"

"أنا..." تلعثمت شهد مرّةً أخرى، فقد أُسكِتت بالحجّة والبرهان.

ابتسم زياد قليلاً وهو يُراقب ارتباكها:

"لا أُخفيكِ سرّاً يا شهد، أعشق هذا الارتباك الذي يُصيبكِ كلما اقتربتُ منكِ."

ازدادت خجلاً، وحاولت إخفاء وجهها بين يديها، فأمسك زياد بذقنها برفق ليُجبرها على النظر إليه:

"أخبريني بصراحة، لماذا جئتِ إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة؟"

رفعت شهد عيونها إليه ببطء، لتقابل نظراته الحانية، فانسابت كلماتها من بين شفتيها كنسمة عليلة:

"لأنني... لأنني لا أُريد أن أُنهي هذه الليلة ونحن على خلاف."

"أهذا هو السبب فقط؟" سألها زياد بصوت أجش.

أطرقت شهد برأسها خجلاً، فاقترب زياد منها أكثر حتى لامست أنفاسه الدافئة وجنتيها:

"أخبريني يا شهد، ماذا أفعل بقلبٍ أصبح أسيراً لعينيكِ؟"

رفعت شهد عيونها إليه ببطء، ليُغرقا معاً في بحر عشق لا ينتهي. لم تستطع مقاومة سحر نظراته، فأغمضت عيونها وهي تستسلم لمشاعرها، ليُطبق زياد على شفتيها بقبلة حارة عكست كل مشاعرهما الصادقة.

انفصلت شفتاهما بعد لحظات، ليهمس زياد في أذنها بصوت مثير:

"أريدكِ الليلةَ يا شهد..."

ابتسمت خجلاً، وغاصت في أحضانه كمن يبحث عن ملاذٍ آمن من عاصفة هوجاء. دفنت وجهها في صدره، تستمدّ الدفء من دفء قلبه، بينما تشبثت برقبتِه كأنها تُعلن له أنها لن تُفارقه أبداً.

همس زياد في أذنها بصوت رقيق مشوب بنبرة عتاب محببة:

"ولكننا سنذهب إلى غرفتك هذه المرة يا حبيبتي. فهي عُشُ حُبّنا، وليست تلك الغرفة الصغيرة التي أُجبر على النوم فيها وحيداً... حزيناً... بائساً... بدونك."

ضحكت شهد بخفّة، وهي تُدرك أن هذه الليلة التي بدأت بالعتاب والخلاف، وجدا نفسيهما بين أحضان عشق حقيقي، عشق تخطى كل الحواجز والقيود. وفي تلك الليلة التاريخية، وُلِدت من جديد حكاية حب صمدت أمام ريح العواصف، لتثبت أن لا شيء أقوى من قلبين اختارا أن يُكملا الطريق معاً.

.....

بعد مرور سنتين، تزيّن منزل زياد وشهد بأجواء من السعادة والدفء الأسري، حيث أُضيفت إلى أرجائه ضحكات طفولية بريئة. كان زياد يحمل ابنته "كادي" ذات التسعة أشهر بين ذراعيه، يتأمل بحب ملامحها البريئة التي سرقت جمالها من والدتها. ضحكات كادي كانت تُعزف كـ سيمفونية عذبة على وتري قلبه، تُذكّره بنعمة الأبوة التي غمرته فيضاً من المشاعر الجديدة التي لم يعرفها من قبل.

وبينما كان زياد منغمساً في لعبه مع ابنته، تسلّلت إلى أنفه رائحة كريهة أفسدت عليه لحظاته السعيدة. نظر إلى كادي بريبة، ورفعها قليلاً ليشم رائحتها، فانقبضت ملامح وجهه بقرف واضح:

"أووووه، ما هذا يا كادي؟ هل تُخبئين لِـ والدكِ مفاجأة غير سارّة؟" قالها زياد بنبرة مزاحية، وهو يُدرك جيداً مصدر تلك الرائحة.

أطلقت كادي ضحكة عابثة، كأنها قد فهمت مغزى كلام والدها، وزادت الطين بلّة. لم يجد زياد بداً من الاستسلام، فصاح بصوت عالٍ:

"شهد، حبيبتي، هلاّ جئتِ لِـ نجدتي أنا وصغيرتكِ؟"

اقتربت شهد منهما بخطوات بطيئة، تتهادى بثقل ونعومة بفضل الجنين الذي يُنير حياتها من جديد. ظهرت على وجهها علامات التعب والإرهاق، فقالت بنبرة متذمرة:

"ماذا هناكَ يا زياد؟ ألا أستطيع الحصول على قسط من الراحة في هذا المنزل؟"

مدّ زياد يديه بكادي إلى شهد، وقال بنبرة لا تُقبل الرفض:

"أرجوكِ يا عزيزتي، غيري لها."

تلقّفت شهد كادي من بين يديه ببعض التذمر، وقالت بنبرة درامية:

"يا إلهي، أهذه هي الحياة الزوجية؟ ألا يكفي أنني أحمل في أحشائي طفلكَ الثاني، حتى أُجبر على تحمّل رائحة حفاضات ابنتك طوال الوقت؟ ألم أخبرك يا زياد أنني لا أُريد أطفالاً قبل أن تكبر كادي قليلاً؟ ولكنك كالعادة لم تُعر لكلامي أي اهتمام! تريد الأطفال واحداً تلو الآخر، هل تريد تحويلي إلى ماكينة إنجاب؟ آآآه، يا لحظي العاثر!"

راقبها زياد بصمت، وعلى وجهه تلك الابتسامة الباردة التي اعتادت شهد رؤيتها كلما حاولت مناقشته في موضوع الإنجاب. ليقول بهدوء:

"انتهيتِ من شكواكِ يا حبيبتي؟"

نظرت إليه بغضب، وقالت بنبرة حادة:

"لا!"

ضحك بخفة، وقال بصوت هادئ:

"هيا يا عزيزتي، خذي كادي وغيّري لها، فأنا أعلم أنكِ تحبينها كثيراً، ولا تستطيعين رؤية دموعها."

كزّت شهد على أسنانها بغضب وقالت:

"ألم تعدني أن تُسعدني وتُدلّلني طوال حياتنا معاً؟ ألا يشمل هذا الدلال مساعدتي في رعاية ابنتك أيضاً؟"

ضحك وهو يلتقط جهاز التحكم بالتلفاز، وقال بنبرة ماكرة:

"لقد كان ذلك وعداً لفترة حملك وبعد الولادة فقط يا عزيزتي. أما الآن، فأنتِ ترين وجه الحياة الزوجية على حقيقته."

عبست وقالت بنبرة حانقة:

"كاذب! فاشل! استغلاليّ!"

ضحك بصوت عالٍ هذه المرة، بينما نظرت شهد إلى كادي وقالت بنبرة مستسلمة:

"رائحتكِ كريهة يا صغيرة، أووف، ما هذه الحياة؟ صبراً يا ربّ."

توجهت بها صاعدة درجات السلم المؤدية للطابق العلوي، تاركة خلفها صدى ضحكاته. لم تكد تخطو بضع خطوات حتى أحسّت بوجوده خلفها، فاستدارت لتُقابل عينيه قائلاً بنبرة عاشقة:

"إلى أين يا قلبي؟ سأُساعدكِ بها حتماً.. لا تحزني."...

هكذا باتت أيام شهد تُحاك بخيوط من مشاكسات زياد، ودلاله، ونوبات مزاحه. أما ضحكاتهما، فقد علت على كل صوت، وغمرت أرجاء منزلهما بدفء لا ينضب. فصول من العمر مضت، تخللتها مشاحنات صغيرة، وهموم تقاسماها سوياً، ليصلا إلى بر الأمان، حيث تزهر قلوبهما بحب لا تطفئه نيران الروتين، ولا تهدمه رياح الزمان.

.....

النهاية

تمت بحمد الله